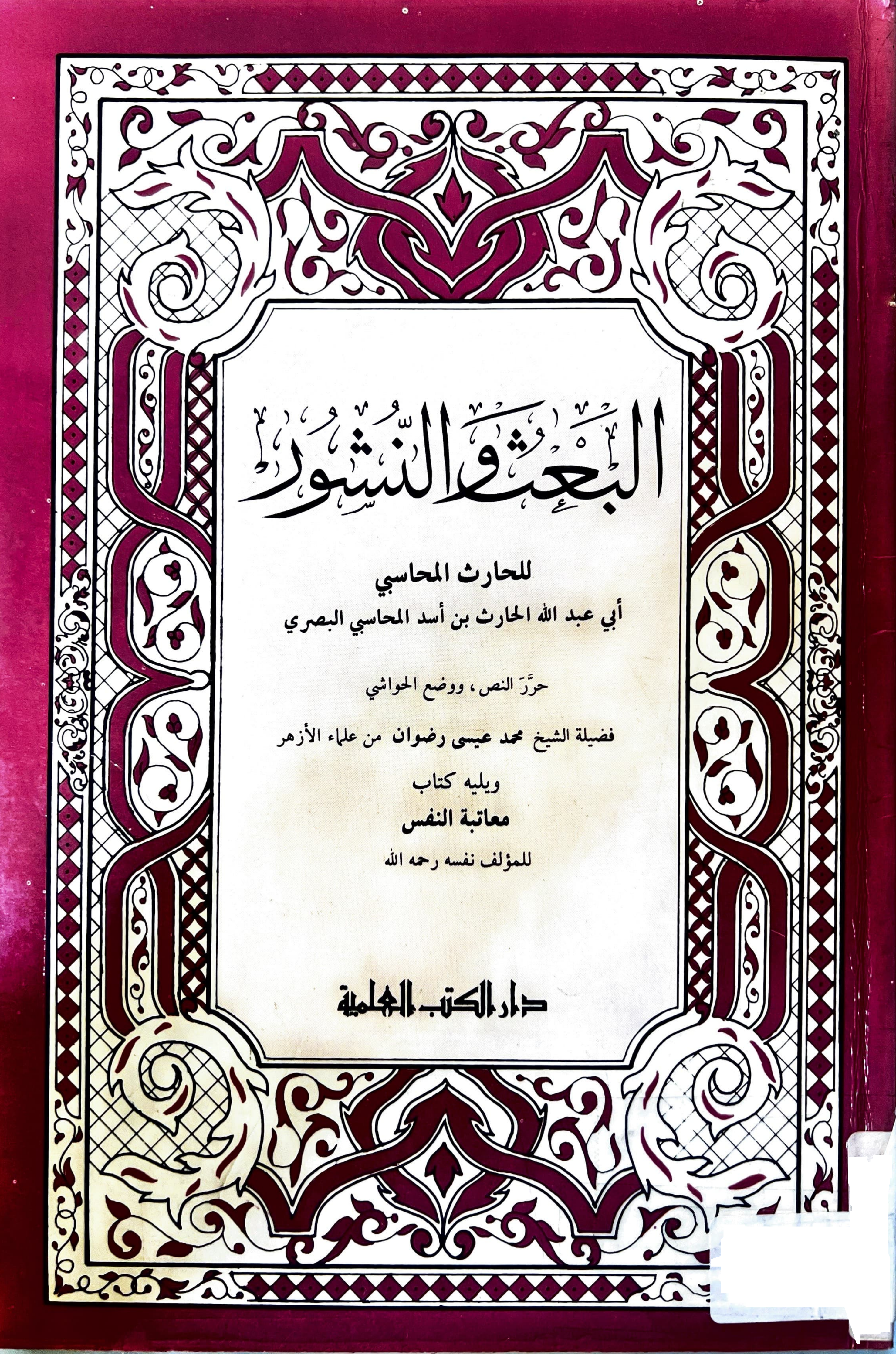

البعث والنشور
للحارث المحاسبي
أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري
حرَّر النص، ووضع الحواشي
فضيلة الشيخ محمد عيسى رضوان من علماء الأزهر
ويليه كتاب
معاتبة النفس
للمؤلف نفسه رحمه الله
دار الكتب العلمية

البعث والنشور

للحارث المحاسبي

أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري

توفي ببغداد سنة ٢٤٣ هـ

حرَّرَ النص، ووضع الحواشي

فضيلة الشيخ

محمد عيسى رضوان

من علماء الأزهر

ويليه كتاب

معاتبة النفس

للمؤلف نفسه رحمه الله

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الاولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦

بيروت - لبنان

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان

هاتف : ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢

ص ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الكريم المنان. أكرم عبده وفضله على سائر المخلوقات تفضيلاً، ومنَّ عليه بأفضل المنن، إذ جعل جميع المخلوقات مسخرة له بإذنه سبحانه وتعالى، ليستغلها العبد في مصالحه، وفيما يعود عليه بالعزة في الدنيا والسعادة في الآخرة[1].

وربطه سبحانه وتعالى به أحسن رباط، كله حبٌّ وودٌّ، وصفاء ونقاء، رباط العبادة والدين. فقد خلقه بمشيئته لذلك قال: ﴿وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدونِ﴾ عبادة معرفة وعبادة تعظيم وإجلال. وعبادة إظهار فضل على الخلائق.

لذلك اقتضت مشيئته تعالى ان يجعل في الآخرة طريقين: طريقاً إلى النعيم المقيم: جنات تجري من تحتها الأنهار لمن عبده وأطاعه، وأحبَّهُ ووالاهُ، وطريقاً إلى عذابٍ مقيمٍ، ناراً أحاطَ بهم مُرادِقُها[2] لمن عق ربَّه، وجحد فضله، وكفر بنعمته، وضل عن عبادته. وحتى يقيم عليهم الحجة، ويقطع عنهم المحاجة أرسل اليهم رسلاً هادين إلى الهدى ودين الحق .وكان خاتم المرسلين وتاج الأنبياء جاءَ بخاتم التشريعات، كتاب به عز الدنيا، وسعادة الآخرة، جمع فيه مصالح العباد، ليحفظهم من الزيغ والضلال، وجعله معجزة في الأنام حتى يقوم الناس لرب العالمين. الواحد القهار، ولو أنك عشت معي لحظات في بيان شرح سورة

---

(١) جاء في الحديث القدسي: يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك. وخلقتك من أجلي. فسر في طاعتي يطعك كل شيء.

(٢) جزء من الآية الكريمة / ٢٩ من سورة الكهف.

الفاتحة الذي اخترته من تفسير للإمام القشيري[٣]. ووقفت على ما فيه من لطائف الإشارات، التي توضح لـك غـايـات القـرآن. وأهـداف كتـاب الله، لعلمت، أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم. ويبشرُ المؤمنين. ويَثْبُتُ به فؤادُك، ويقوي به إيمانك. ويربط الله به على قلبك. فهيا معي إلى لطائف الإشارات في بيانها الإيماني، وتفسيرها الروحاني:

(٣) هذا التفسير هو للشيخ عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري. ولقبه: زين الإسلام، وشهرته العشيري ولد سنة ٣٧٦ هـ، وتوفي سنة ٤٦٥ هـ مع تصرف لنا فيه.

تفسير سورة الفاتحة

سميت سورة الفاتحة بأم الكتاب، وأم الشيء أصله، وإمام كلّ شيء مُقْدَمُهُ، وهذه السُّورةُ لِما تشتملُ عليه منَ الأمرِ بالعبودية، والثناء على اللهِ بجلالِ الربوبيةِ. ثمّ كمالُها مِنَ الفضائلِ، لا تَصِحُّ الفرائِضُ إلاَّ بها.

وقوله ﷺ: عن الله سبحانه وتعالى: قسمت[٤] الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. يعني قراءة هذه السورة، فصارتْ أم الكتاب: وأصلاً لما تنبني عليه لطائف الكرامات وبدائع التقريب والإيجاب.

قوله جل ذكره «بسم الله الرحمن الرحيم»:

الباءُ: في «بسم الله» حرف التضمين: أي بالله ظهرت الحادثات وبه وجدت المخلوقات. فما من حادث مخلوق، وحاصل منسوق من عين وأثر وغَبْرٍ وغَيْرٍ، من حَجَرٍ ومَدَرٍ. ونَجْمٍ وشَجَرٍ ورسْمٍ وطَلَلٍ، وحِكَمٍ وعِلَلٍ، إلاَّ بالحقّ وجودُه. والحق مِلكَهُ ومِنَ الحق بَدْؤُهُ، وإلى الحق عَوْدُهُ، فبِه وَجَدَ مَن وَحَّدَ، وبهِ جَحَدَ مَن أَلحَدَ، وبهِ عَرَفَ مَن اعْتَرَفَ، وبهِ تخلَّفَ مَن اقترَفَ وقال: بسمِ اللهِ. ولم يَقُلْ باللهِ، على وجه التبرك بذكرِ اسمِهِ عند قومٍ، وللفرق بين هذا «بسم» وبين القسم عند الآخرين، وعند العلماء أنَّ الإسمَ هُوَ المسمَّى، وعِندَ أهلِ العِرفان: هُوَ لاستخْلاصِ الأسرارِ مِنَ العوائقِ، واستصفاءِ القلوبِ مِنَ العلائِقِ ليكونَ وُدودَ قولِهِ «الله» على قَلْبٍ مُنقَّى، وسِرٍّ مصفًّى، وقوم عند ذكر هذه الآية يتذكرون من:

الباءِ: بِرَّهُ بأولِيائِهِ، ومِنَ السِّينِ، سِرَّهُ مَعَ أصفيائِهِ، ومِنَ «الميمِ» مِنَّتُه على

---

(٤) قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، حديث قدسي.

أهلِ وِلايَته، فيَعلَمونَ أنَّهم ببِرِّهِ عَرَفوا سِرَّهُ، وبِمِنَّتِهِ عليهم حَفِظوا أمرَهُ. وبهِ سُبحانَه عَرَفوا قَدْرَهُ.

وقَومٌ عِندَ سماعِ «بِسْمِ اللهِ» تَذَكَّروا: بالباءِ. بَرَاءَةُ اللهِ تعالى مِن كلِّ سوءٍ، وبالسِّينِ: سلامَتَهُ جَلَّ قَدرُهُ مِن كلِّ عَيْبٍ - وبالميم - مَجدُهُ جَلَّ وعَلا بعِزِّ وصْفِهِ.

وقومٌ آخرونَ: يذكُرونَ عِندَ الباءِ، بهاءَهُ، وعندَ السِّينِ سَناءَهُ وعند الميم مُلكَهُ، فتدبر ذلك كلَّه فإنَّه نافعٌ إن شاءَ اللهُ.

قوله عز وجل: الحمدُ للهِ: إعْلَم أنَّ حقيقةَ الحمدْ: الثَّناءَ على المحمودِ. بذِكرِ نُعوتِهِ الجليلةِ، وأفعالِهِ الجميلةِ، واللاَّمُ هنا تفيد الاستغـراقَ للجنسِ كلِّه: وعليه فجميعُ المحامِدِ للهِ سُبحانَه إمّا وَصْفاً، وإمَّا خَلْقاً. فَلَه الحمدُ، لِظهورِ سُلطانِهِ. ولَهُ الشكرُ لوُفورِ إحسانِه، والحمدُ للهِ لاستحقاقِهِ لجلالِهِ وجمالِهِ، والشكر للهِ لجزيلِ نوالِه، وعزيزُ إفضالِهِ.

فحمدُهُ سبحانَه لَه هُوَ مِن صِفاتِ كمالِهِ وحولِهِ. وحَمْدِ الخَلْقِ له على إنعامِهِ وطَوْلِهِ، وجَلاَلِه وجَمالِهِ، استحقاقه لصفاتِ العلـوِّ. واستجـابـةً لنعـوت العـزِّ والسموِّ. فلَهُ الوجودُ القديمُ، ولهُ الجُودُ الكريمُ. ولَهُ الثبوت الأحدِيّ، والكون الصَّمَديّ، والبقاء الأزليّ. والبهاءُ الأبديّ. والثناء الدَّيْموميّ، وله السَّمْعُ والبَصَرُ والقضاء والقَدَر، والكلامُ والقَـوْل، والعِزّ والطوْلُ. والرَّحمةُ والجودُ. والقدرة والجلالُ وهوَ الواحدُ المتعال، كبرياؤه رِداؤه، وعلاؤه سناؤهُ، ومَجدُهُ عِزُّهُ، وكونُهُ ذاتُهُ، وأزلُهُ أبدُهُ، وقِدَمُهُ سَرمَدُهُ، وحقُّه يقينُه، وثُبوتُه عينُه، ودوامُهُ بقاؤهُ، وقَدرُهُ قضاؤهُ، ونهيُه أمرُهُ، وغَضَبُهُ رحمَتُهُ، وإرادتُهُ مشيئتُهُ وهُوَ الملِكُ بجَبروتِهِ، والأحَدُ في مَلَكوتِهِ. تباركَ اللهُ سُبحانَهُ.

فصل

إعلَم أنَّ الحمّادينَ، وهُم أهلُ الحمدِ، طوائِفَ مختلفةٌ نذكر منها طائفتين: فطائفة حمَدوه على ما نالوا من إنعامِهِ وإكرامِهِ، وإزاحتِهِ وإتاحتِه، ودفعِهِ ونَفعِه، وما عَقلوا مِن إحسانِهِ، وما عَرفوا مِن إفضالِهِ: قال جَلَّ ذكرهُ: ﴿وإن تعدوا نعمةَ اللهِ لا تحصوها﴾، سورة إبراهيم،الآية: ٣٤.

وطائفةٌ أخرَى حمَدوهُ، على ما لاحَ لِقلوبِهِم مِن عَجائِب لطائفِه وأودَعَ سَرائِرَهُم مِن مكنوناتِ برِّهِ، وكاشَفَ أسرارَهُم به مِن خَفِي غيبِهِ فتأمل خصائِصَ كلِّ طائفةٍ، وفرَّقَ بينَ من يحمده بعز جلاله، وبين مَن يشكرُه على وجودِ أفضالِهِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكرُهُ: رَبَّ العالمينَ:

إعلَم أنَّ الرَّبَ هو السيِّدُ، والعالمونَ: جميعُ المخلوقاتِ. واختصاصُ هذا الجمع ـ بلفظِ العالمينَ ـ لاشتمالِهِ على العُقَلاءِ والجماداتِ، فَهُوَ سبحانَهُ مالِكُ الأَعْيانِ ومُنشِئِها، ومُوجِدُ الرسومِ والديارِ بما فيها.

كما يطلق اسم الرب أيضاً على تربية الخلق: فهو سبحانَه مربٌّ نُفوسَ العابدينَ، بالتأييد، ومُرَبٍّ قُلوبَ الطالِبينَ بالتَّسديدِ، ومُربٍّ أرواحَ العارفينَ بالتَّوحيدِ، وهُو مُربِّ الأشباحَ بوجودِ النِّعَمِ، ومُربِّ الأرواحَ بشُهودِ الكرَمِ.

قوله جل ذكره: الرحمن الرحيم:

هُما إسمانِ مشتقَّانِ مِنَ الرَّحمةِ. والرَّحمةُ صفةٌ أزليَّةٌ. وهي إرادةُ النعمةِ: وهُما لفظانِ وُضِعا للمبالغة: لا فَصْلَ بينهما: وقيل: الرحمن أشد مبالغة وأتم في الإفادة. ولذلك لا يسمى بها إلا الله سبحانه. والرحيم ينعت بها غيره كقوله تعالى: بالمؤمنين رؤوف رحيم (٥).

---

(٥) كقوله تعالى: ﴿رؤوف رحيم﴾ جزء من الآية رقم ١٢٨ سورة التوبة.

وعلى هذا التفريق بينهما: قالوا الرحمن: خاصُّ الإسم. عامّ المعنى. والرَّحيمُ: عامّ الإسم خاصُّ المَعْنَى ،فلأنه الرحمن: رزق الجميع ما فيه راحة ظواهرهم ولأنه الرحيم. وفق المؤمنين لما به حياة سرائرهم فالرحمن بما روّحَ. والرحيم بما لَوّحَ، والترويحُ بالمبارّ والتلويح بالأنوار. فتأمل ما قالوا:

الرحمن بكشفِ تجلّيهِ والرَّحيمُ بِلُطْفِ تَولّيهِ
الرحمن بما أوْلَى مِنَ الإيمانِ والرَّحيمُ بما أسدَى مِنَ العِرْفانِ
الرحمنُ بما ينعِمُ به من الغفرانِ والرحيم بما يمن به مِنَ الرضوانِ

قوله جل ذكره: مالكِ يومِ الدِّين:

المالك من له الملك: ومُلكُ الحقِّ سبحانه وتعالى: قدرته على الإبداع. فَكما لا إله إلا هو. فَلا قادر على الإبداع إلاَّ هُوَ فهو بالاهيَّتِهِ متوحِّدٌ، وبمُلكِهِ متفرِّدٌ، مَلِكُ نفوسَ العابدينَ فَصرَفَها في خدمتِهِ، وملك قلوب العارفين فَشرَّفَها بمعرفتِهِ سبحانَه وتعالى: ملكَ قُلُوبَ العابدينَ إحسانُه، فَطَمِعوا في عطائهِ، ومَلَكَ قلوبَ الموحدينَ سَلطانُه. فَقَنِعوا ببقائهِ. عرَّف أربابَ التوحيدِ أنه مالِكَهم فسقطَ عنهمُ الاختيارُ. عَلِموا أنَّ العبدَ لا مُلكَ له. ومَن لا مُلكَ له لا حُكمَ له: إنِ الحُكمَ إلا للهِ، ومَن لا حُكمَ لا اختيارَ له، فلا لهم عن طاعتِهِ إعراضٌ. ولا على حُكمِهِ اعتراضٌ. ولا في اختيارهِ معارَضَةٌ ولا لـمُخالَفَتِهِ تَعَرّضٌ.

ويوم الدين: هو يوم الجزاء والنشر، ويوم الحساب والحشر الحق سبحانه وتعالى: يجزي كلاً بما يريد.

فمن بَينِ مقبولِ يومَ الحَشرِ بفضلِهِ سُبحانَهُ لا بِفِعلِهِم، ومَن بينِ مَرْدُودٍ بحُكمِهِ سُبحانَهَ وتعالى لا بجرْمِهِم.

فأما الأعداء فيحاسبهم ثم يعذبهم، وأما الأولياء فيعاتبُهُم ثم يقرِّبُهُم:

قَومٌ إذا ظَفَروا بِنا جادُوا بِعِتقِ رِقابِنا

قوله عز ذكره: إياكَ نَعبُدُ وإيّاكَ نَستَعينُ: معناه نعبدك. ونستعينَ بكَ. والابتداء بذكر المعبود أتم من الابتداء بذكر صفته، التي هو عبادته واستعانته وهذه الصيغة أجزل في المعنى . وأعذب في السمع.

واعلم أن العبادة هي الإتيان بغاية ما في بابها ـ أي العبادةِ ـ من الخضوع. ويكون ذلك بموافقة الأمرِ، والوقوف حيثُ وَقَفَ الشَّرعُ. والعبادة تشير إلى بذل الجُهدِ والـمِنَّةِ، والاستعانةُ طَلَبُ الإعانَةِ منَ الحقِّ، وتُخبِرُ عن استِجلابِ الطَّوْلِ والمِنَّةِ.

فبالعبادةِ يَظهَرُ شَرَفُ العبدِ، وبالاستعانةِ يحصُلُ اللّطْفُ بالعبدِ وحيث أن في العبادةِ وجودُ شرفِهِ، فبالاستعانةِأمَانُ تَلَفِهِ.واعلم: أنَّ العبادةَ ظاهرُها التَّذَلُّلُ وفي حقيقَتِها العزُّ والتجمُّلُ والعبـادةُ نزهةُ القاصدينَ، ومستروحُ المُريدينَ، بها قُرَّةُ أعيُنِهِم وفيها مَسَـرةُ قلوبهم: وإلى ذلك أشارَ ﷺ، أرِحْنا بها يا بلال[٦].

والاستعانةُ: إجلالٌ لِنعوتِ كَرَمه، ونُزُلُكَ بساحة جُودِهِ وتسليمُكَ إلى يَدِ حُكمِهِ. فتقصِدَهُ بأملٍ فسيحٍ، وتخطو إليه، بِخَطْوٍ وسيعٍ، وتأمل فيه برجاء قوي، وتثق بكرمٍ أزَليّ. قوله جل ذكره: إهْدِنَا الصِّراطِ المستقيم: الهِدايةُ الإرشادُ، والمهْديُّ: مَن عَرَفَ الحقَّ سبحانَهُ وتعالى. وآثَرَ رِضَـاهُ وآمَنَ بِهِ، والأمرُ في هذه الآية الكريمة: مُضمَرٌ فمعناه: إهدنا بنا: أيْ أقم فينا ما يجعلنا نهتدي به اليك ـ ومعنى سؤالِهِ سُبحـانَـه الهدايـةَ: الاستـدامَـةَ والاستـزادةِ. والصراطُ المستقيمُ: هوَ الطريقُ الحقُّ. وهوَ ما عليه أهلُ التَّوحيد.

اللهمَّ: خذنا لك، وكن علينا، دليلنا، ويسِّر اليك سبيلنا، وأقم لنا هِمَمَنا، واجمَع بكَ هُمومَنا. ولَوِّح في قُلوبِنا، طوالِعَ الأنوارِ.

واعلم أنَّ الصراطَ المستقيمَ: ما عليه مِنَ الكتاب والسنَّةِ دليلٌ: وليسَ للبدعةِ عليه سُلطانٌ ولا إليه سبيلٌ فهوَ ما يُفضي بسائلِهِ إلى ساحةِ التوحيد. ويشهدُ

---

(٦) ارحنا يا بلال: جزء من حديث متفق عليه.

صاحبه أثرَ العِنايَةِ والجودِ. لئلاَّ يَظُنَّ أنه موجَبٌ ببذلِ المجهودِ: قال عليه الصلاةُ والسلامُ: ما مِنكُم مِن أحدٍ ينجِّيه عملهُ؟ قالوا: وَلا أنتَ يا رسولَ الله. قال: ولا أنا: إلاَّ أن يتغَمَّدَني اللهُ برحمتِهِ [٧].

قوله جل ذكره، صراط الذين أنعمتَ عليهم، المراد به: طريق مَن أنعمتَ عليهم بالهدايَةِ إلى الصراطِ المستقيم. وهُم: الأولياءُ والأصفياءُ وهُم الذينَ قاموا بحُقوقِ الله تعالى: حتى تحرَّروا من مكائِدِ الشيطان ومغاليطِ النُّفوس، ومخاييلِ الظُّنونِ.

ويُقالُ: صراطُ مَن أنعمتَ عليهم بالنَّظرِ والاستعانـةِ بـكَ. والتَّبـرِّي مِـنَ الحوْلِ والقوّةِ، وشُهُودِ ما سَبَقَ لهُم مِنَ السعادةِ في سابقِ الاختيارِ. والعِلمِ بتوحيدِكَ فيما تمضيهِ مِنَ المسارِ والمضارِّ.

ويُقالُ: صِراطَ الَّذينَ أنعَمتَ عليهِم بحِفظِ آدابِ الشريعة وأحكامها. حتى لا يخرجوا عن حَدِ العِلمِ، ولم يَخلُّوا بشيءٍ من أحكام الشريعة.

قوله جل ذكره: غير المغضوب عليهم ولا الضَّالِّينَ. المغضوب عليهم الذين لَحِقَهُم ذلُّ الهوان، وأصابهم سواءُ الخُسرانِ فَشُغِلوا باجتِلابِ الحُظوظِ. وهو في الحقيقة شقاء. إذ يحسبون أنهم على شيء. وللحق في شقائهم سر.

ويقال: غير المغضوب عليهم بنسيان التوفيق، والتعامي عن رؤية التأييد.

ولا الضَّالين: عن شهود سابق الاختيار، وجريان التصاويف والأقدار فائدة: يقول العبد عن قراءة هـذه السـورة ـ آمين ـ والتـأمين سنـة: ومعنـاه: يـا رب استجب: وكأنه يستدعي في هذه القالة: التوفيق للأعمال، والتحقيق للآمال. ويحط رجله بساحة الافتقار. ويناجي حضرة الكرم، بلسان الابتهال. ويتبرأ من الحول والطاقة والـمِنَّة والاستطاعة إلى حضرة الجود. وإن أقوى وسيلة للفقير تعلقه بدوام الاستعانة لتحققه بصدق الاستِغاثَةِ وبعد هذه الهداية الربانية،

(٧) ما منكم من أحدٍ ينجيه عمله.. رواه الجماعة.

والنفحة الربانية، أخذك في رحلة أخروية، وسياحة روحية، من عالم جليل، وزاهد كبير، يستجيش فيك قمم الإمان. ويبني في قلبك عمد الإسلام، فيطهر قلبك. وتَصفوَ نفسُك. حتى تقول أسْلَمْتُ للهِ ربِّ العالمينَ: وحدَه لا شريكَ لهُ.
إنه كتاب « البعث والنشور » بعد الليث في القبور من لحظة أن يأذن الله بانتهاء الدنيا وابتداء الآخرة ولعلنا أردنا بذلك أن يزداد المؤمن إيماناً. وليعلن المسيء إلى الله تعالى متاباً. وذكـرى للمؤمنين. وأسأل الله تعالى أن ينفع به لمن قرأه واستوعبه وتأمله بحسن روية وفكر. وأن يتقبل منا جهدنا ويتجاوز عن تقصيرنا. وأن يلهمنا جميعاً من امرنا رشداً. ويهدينا جميعاً سواء السبيل. وعلى قصد السبيل. والله ولي التوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

هوَ الحارثُ بنُ أسَدِ المحاسبي، قطب العارفين في وقته، وأستاذ السائرين في أوانه. برع في عدة علوم، وتكلم على الناس فأراهم الجوهر المكنون، أحد كبار الزهاد، ولسانُ القومِ في ذلك العصر، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفاتِ الأعمال. وعُرِفَ بالمحاسبي لكثرة محاسبته نفسِهِ، يرجح تاريخ ولادته ١٦٥ هـ بالبصرة، وتوفي ببغداد ٢٤٣ رحمه الله، وهو شيخ الجنيد! وكان إمامُ المسلمينَ في الفقه والتصوف والكلام وقد روى الحديث وأخذ عن الإمام الشافعي.

كان المحاسبي شديد الورع، خالص التقوى، كثير العبادة، وقيام الليالي والتهجد. متقشفاً زاهداً إلى جانب فقهه وغزارةِ علمه، وتمكُّنِهِ منْ الوعْظِ والإرْشَادِ والترغيب والترهيب ببيان بليغ، وأسلوب فصيح، وخيال واسع يجعلك تتخيل المشهد وهو مجسم أمامك مع قوة عقيدة، كانت أسرة المحاسبي أسرة ميسورة الحال. ويوم مات أبوه خلف سبعين ألف درهم. فلم يأخذ منها شيئاً ولا حبة واحدة وأنه لمحتاج إلى دانق، لأن أباه كان يقول بالقدر، فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئاً، وعاش حياته زاهداً صابراً محتسباً. ورعاً تقياً وقال: أهل مِلَّتَيْنِ لا يَتوارثان.

ولما وَجَدَ سَيل المعتزلةِ قد تعاظم وقوي. نهض بالذب عن السنة وألف في الرَّدِّ عليهم كُتباً. فقد معظمها. إلا أنّ أكثر آرائه نقلها الشهرستاني في «الملك والنحل»، كما ألف كتباً في الردّ على الرافضةِ والقَدَرِيَّةِ وفي السُّلوكِ والتصوف، والفقه والأحكام. ويوجد علاقة بين المحاسبي، والغزالي.

فإن المحاسبي قد نهضَ بالسّنَةَ بعد أن استوعب ثقافة عصرِهِ وخَلا بنفسه،

ودَرَسَ وضعَ الإسلامِ حينئذٍ، والإمام الغزاليّ ردَّ على الفلاسفةِ والمتكلّمينَ بعد خَلوته ومنقذِهِ مِن الضَّلال واستيعابه لعلومَ وثقافة عصرِهِ، فكان أثر المحاسبي على الغزالي واضحاً حتى لقد تبطَّن الإمامُ الغزالي كُتُبه في كتابهِ الأحياء، وقال عنه: المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وأفاتِ الأعمال.

وقال التميمي عنه: هو إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام.

وقال ابن الأثير، هو أول من تكلم في إثبات الصفات، ومن فوائده البديعة: من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زين الله ظاهره بالمجاهَدةِ.

وقال الحافظ الذهبي: والمحاسبي العارف صاحب التواليف: «صدوق في نفسه، وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه».

وسبب النقمة عليه يعود لأمرين:

أولهما: أن عصره كان عصرَ نقل وتدوين، وكان يقتصر على نقلِ النّصوص دون إعمالِ الرَّأي فيها: فلما نَهَضَ المحاسبي بإعمالِ الرأي وتمحيص السائل في استيعاب وفهم هذه الآثار وبعَثَ واجتهد، نقم عليه علماءُ عصرِهِ وجَرَّحوهُ.

وثانيهما: نقله لنصوص علماء الكلام والرد عليها، لأنه كان يرى أن القيام بالرَّدِّ على البِدَعِ فرْضٌ، ولكنَّ الإمام أحمدُ بنُ حنبَل أنكر عليه ذلك وقال: إنك حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها، فبِم تأمَنُ أن يطلع الشَّبهَة مَن تعلَّقَ بفهمِهِ ولا يلتفِتُ إلى الجوابِ، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه؟

ومن هنا حَمَلَ الإمام أحمد على كتب الإمام المحاسبي في علم الكلام فلم يعتن بها أهل السنة واختفت، إلا ما نقله الشهرستاني في الملل إلا أن مَسْلَكَ الإمامُ المحاسبي في التصوف والزهد ومحاسبته النفس، لم يعترض عليه أحدٌ، لا بَل أثنى عليه كثيرٌ من الأئمَةِ رحمهم الله ـ ومنهم الشيخ ابن تيمية.

ويوجد أثر روحي آخر ينقله السبكي في الطبقات: كان المحاسبي إذا مد يده

إلى طعام فيه شبهة تحرق له عرق في أصبعه. فيمنع عنه وقد نقل عن الحارث المحاسبي قوله: بيني وبين الله علاقةٌ. إذا لم يكن الطعام مرضياً ارتفع إلى أنفي منه زَفْرَةٌ فلم تقبله نفسي.

وكتابه «البعث والنشور كتاب تعيس ليس له نظير. فهو يبدأ في وصف البعث والنشور بنداء المنادي للعرض على الله عز وجل وانشقاق السماء واجتماع حَرِّ الشمسِ وفيضانِ الغَرَقِ وانشغال كل فَردٍ بنفسه. وفرار الإنسان من أهله، وكانوا مؤنسِه، وقرة عينه في الدنيا.

وطلب الخلائق الشفاعة من الأنبياء، ومن سيدنا محمد ﷺ، ووقوفِ العبدِ بقلبٍ مرعُوبٍ. وجوارحَ مُرتعِدة بينَ رَبٍّ عظيم.

ثم ينتقل إلى وصفِ المرورِ بالصِّراط. وعذاب جهنم. واستغاثة أهل جهنم ولا مغيث.

ثم يصف بعد ذلك ما أعد الله للمؤمنين من الجنات. وألوان نعيمها واجتماع الأهل والوِلدان .. ومواكب الحُورِ العينِ، واكتمال المسرات وما أعد الله لأهل عباده، وأحبائه من خلقه. ووصف فائدة الرحمن ورفع الحجب. وظهور الله عز وجل بكماله على صفوته وأثر ذلك في مضاعفة حسن وإشراف الله تعالى.

ويختمه في طلب الرضا من الله بالعمل الصالح لكي ننال ثواب المتقين.

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ ، وبهِ نَستعين .

حدثنا عثمان بن سلمان عن الضحَّاك بن مزاحم عن العباس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : أنا أول من تَنْشَقّ عنه الأرض يوم القيامة . ولا فخر .

وأنا سيد ولد آدم ولا فخر .

وأنا صاحب الشفاعة ، يوم القيامة ، ولا فخر .

ولواء الحمد ، معقود على رأسي ، يومَ القيامة وكل الأنبياء تحت لوائي ، ولا فخر ، وأمتي خير الأممِ ، ولا فخر .

فأوّلُ مَن يُحاسَبُ قبل الأمم ، أُمّتي ، وكأني أنظر إلى الأمم وأمتي ، قد قاموا من القبور ينفضون التراب عن رؤوسهم ووجوههم ، وهُم يقولون : لا إله إلا الله ، محمّدٌ رسولُ اللهِ ﷺ : ويقولونَ : هذا ما وعدَ الله . وصدَقَ المرسلونَ .

قال ابن عباس ، رضي الله عنهما : إنَّ أوّلَ مَن يقومُ مِن قبرِه يومَ القيامةِ ، محمد ، ﷺ ، فيأتيهِ جبريل - عليه السلام - ومعَه البُراقُ ، وإسرافيل ومعه اللواء والتاج ، وعزرائيل ومعه حلتان من حُلَلِ الجنَّةِ ثم ينادي جبريلُ عليه السلام . :

يا أيَّتها الدنيا ، أين قبرُ النبيِّ محمد ﷺ ؟ فتقول الأرض : إنَّ ربّي قد جعَلَني دكّاً . وقد ذهبت حيطاني . ورسومي ، فما أدري : أين قبر النبي ﷺ : قال : فعند ذلك يرتفع عامود من النورِ من قبر النبي ﷺ : إلى عنان السماء . فيقف الأملاك الأربع على القبر ، ثم ينادي إسرافيل يا أيتها الروح الطيبة ، ارجعي إلى الجسد الطيب . فيصدَّع القبر . ثم ينادي الثانية . فينشق القبر نصفين ثم ينادي الثالثة ، فإذا

النبي ﷺ واقف ينفض التراب عن لحيته المباركة، وعن رأسه وينظر يميناً وشمالاً، فلا يرى من العمارات شيئاً. فتجري دُموعُه على خَدَّيه. فيقول جبريل عليه السلام:

« قم يا محمد، هذا يومُ القيامةِ، هذا يومُ الحسْرةِ والنَّدامةِ، هذا يومُ العَرْضِ على الجبَّارِ. فيقول يا حبيبي يا جبريل: بشرني..؟ فيقول:

كنت عند الله بالمنزلة العليا.. فيقول:

يا حبيبي يا جبـريل. ليس عن هذا أسألُكَ، فيقول:

يا سيِّدي: أما تَرى أملاكَ [٨] رَبِّ العالمينَ بينَ يَدَيكَ؟
فيقول:
ليس عن هذا أسألُكَ.. فيقول:
أما ترى حلل الجنة قد بعثت إليك.. فيقول:

ليس عن هذا أسألُكَ.. فيقول:

أما ترى لواء الحمد معقود على رأسِكَ..؟ فيقول:

ليس عن هذا أسألك، إنما أسألك عن أمتي [٩] أين خَلَفْتَهم [١٠]؟ فيقول:

وعزة ربي وجلاله، ما انشقت الأرض عن بشر قبلك يا محمد..فيقول النبيُّ ﷺ:

لأشدن اليوم مئزري [١١]، وأشفع لأمتي.

★ ★ ★

---

(٨) الأملاك: يريد الملائكة الأربعة: جبريل وإسرافيل وعزرائيل ومالك.

(٩) إنما أسألك عن أمتي: ويصدقه قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾: ١٢٨ من سورة التوبة.

(١٠) خلفتهم: أي تركتهم.

(١١) ميزري: أي مئزري، وهو الثياب.

ثم يقول جبريل عليه السلام: إركب البراق، وقم إلى ربك. ثم إن جبريل عليه يقدم البراق، فيفرَّ، فيقول له جبريل، أما تستحي يا براق؟ تَفِرٌّ من محمَّدٍ ﷺ: وقد أمرك ربك بالطاعة له. فيقول البراقُ: قد علمت ذلكَ. ولكني أشتهي قبل أن يركبَني، أن يدخلني الجنة بشفاعته، فإن رب العزة قد غضب اليوم غضباً ما غضب مثله قط، فيقول النبي ﷺ: إن احتجت إلى الشفاعة شفعت لك. ثم يركبها: فتخطو بكل خطوة مَدَّ البصر، فإذا ببيتِ المقْدِسِ على أرض من الفضة البيضاء، ثم ينادي إسرافيلُ عليه السلام:

أيتها الأجساد البالية، والعظام النخرة، والشعور المنتشرة والعروق المتقطعة، قوموا من حواصل الطيور، وبطون السباع، ولجج البحار، ومن بطون الأرض إلى العرض على رب العالمين.

★ ★ ★

ثم يوضع أرواح الخلائق كلها في الصُّورِ، فتجلس كل روح في طاقة، وفي الصُّورِ، طاقاتٌ، بعدَدِ أرواحِ الخلائق ويَنفُخُ إسرافيلُ في الصُّوَرِ. وتُمطِرُ السماءُ على الأرضِ ماءً من بحرِ الحيوان [١٢]، ثخيناً مثل مَنِيِّ الرِّجال، فينبت العظام وتمتلىءُ العُروقُ. وينبت اللحم والجلد، ويبقى بعضهم على بعض [١٣] جُثَثٌ بلا أرواحٍ... ويقول الله تعالى:

يا إسرافيلُ. إنفُخ في الصُّورِ، فأحْيِي بإذْني أهلَ القُبورِ. مِن أهلِ الفَرَحِ والسُّرورِ..

فينفخ إسرافيل في الصُّور... ويقول:

يا أيتها الأرواح الفانية: ارجعوا إلى أجسادكم وقوموا إلى العرض على رب العالمين.

---

(١٢) بحر الحيوان: أي بحر الحياة.

(١٣) ويبقى بعضهم على بعض: أي يتراكم بعضهم على بعض.

فيقول الله تعالى: وعزَّتي وجلالي، لَترْجَعَنَّ كلّ رُوحٍ إلى جَسَدِها.

فإذا سمعت الأرواح قَسَمَ الحقِّ سبحانه وتعالى، رجعت كلاًّ رُوحٍ إلى جَسَدِها.. ثم تنشق الأرض عنهم. فإذا هم قيام ينظرون. فيجلس النبي ﷺ على صخرة بيت المقدس. ينظر إلى الخلائق وهم يقومون، كالجراد المنتشر فتقوم سبعون أمة، وأمة محمد ﷺ أمة واحدة والنبي ﷺ ينظر إليهم وهم يهُوجونَ كموج البحار. وجبريل عليه السلام ينادي:

معشر الخلائق. هلموا إلى العرضِ على الملكِ الجبّارِ.

فتقبل الأممُ زُمُرَةً بَعْدَ زُمْرَةٍ، وكلّما أقبلَت زُمْرَةٌ يقولُ النبي ﷺ أينَ أمتي. فيقول جبريل «إنَّ أمَتَكَ آخرُ الأممِ» فإذا أقبل عيسى عليه السلام، نادَى جبريلَ ميكائيل. فيبكي عيسى وجبريل. فيقول النبي ﷺ «أين أمَّتي؟» فيقول جبريل عليه السلام: «قد أقبلوا وهم هؤلاءِ الغرُّ الـمُحَجّلونَ». فعند ذلك يبكي النبي ﷺ ويقول: «يا جبريلُ، كيفَ حالُ المؤمنينَ من أمّتي؟» فيقول جبريل: «انظر اليهم يا محمد» فينظر النبي ﷺ وهم يبكون. فيسلم الصالحون منهم على النبي ﷺ فيهنئوه بما أعطاه الله تعالى من الكرامات.. ويفرحون بلقائه. ويفـرح بهم، ويَلْقونَه العُصاةُ من أمَّتِهِ. وهم يَبكُونَ، وأوزارَهُم على ظُهورِهِم، وهُم ينادُونَ: يا محَمّدُ، ودُموعُهُم تَجري على خُدودِهِم. وقَد تعلَّقَ المظلومونَ بالظّالمين. فيقول النبي ﷺ: «يا أمَّتي». فتجتمع إليه أمته. وهم يبكونَ. فبينما كذلك، إذ نادى مُنادٍ مِن قِبَل الله تعالى: أين جبريل؟ فيقف بين يد الله سبحانه وتعالى: فيقول له وهو أعلم بذلك: «يا جبريل أين أمة محمد ﷺ؟» فيقول جبريلُ عليه السلام: «يا رب آخر الأمم». فيقول الله تعالى: «يا جبريل، قل لحبيبي محمد ﷺ يُقْدِمُ قومَهُ للعَرْضِ عليّ» فيرجعُ جبريلُ، عليه السلام، باكياً، ويقولُ: «يا محمد، قَدِّم أمّتك للعرضِ على الملكِ الجبّارِ» فيلتفت النبي ﷺ إلى أمته، فيقول لهم: «قد دعيتم إلى العرض على الله سبحانه وتعالى» فيبكـي المسلمون فزعاً من خطاياهم، فيسوقهم النبي ﷺ كما يَسوقُ الراعي غنمَهُ بين يَدَيّ اللهِ سبحانه وتعالى ثم يقول الله سبحانه وتعالى:

« أنصوتوا إليّ. فطالما أنصتُ إليكم، وأنتم على المعاصي » فيسكت العباد.

فيقول الله سبحانه وتعالى:

« اليوم تجزى كل نفس بما كسبت. لا ظُلم اليوم. اليوم أُكرِمُ مَن أطاعَني. وأُعَذِّبُ مَن عَصاني، يا جبريلُ: انطلق إلى مالِك. فقل له يا مالِكُ، أمرَكَ ربكَ أن تحضر جهنم » فيقول مالك: يا جبريل: أي يوم هذا؟ فيقول جبريل « هذا يوم القيامة، هذا يوم تجزى كل نفس بما كسبت[١٤] » فيقول مالك: « يا جبريل وقد أحضر الله الخلائق كلَّهم؟ » فيقول نعم. فيقول مالك: « أين محمد وأمته؟ » فيقول: « قد وقفوا بين يدي الجبار، جل جلاله » فيقول: « كيف تستطيع أمة محمد أن تصبر على جهنم وزفيرها؟[١٥] إذا عيرت عليهم وهم الضعفاء؟ » فيقول جبريل عليه السلام « ما أعلم ».. ثم يصيح مالك، صيحة هائلة. فتقوم النار على قوائمها. ولها قوائم شداد غلاظ، ثم تَفِرُّ فَرَّةً فلا يبقى في عين أحد من الخلائق، قطرة من الدموع، فيبكي الناسُ الدماءَ، وتشيب الولدانُ، وتضع الحوامل أحمالَها وترى الناسَ سُكارَى وما هُم بسُكارَى ولكنَّ عذاب اللهِ شديد[١٦] فأولُّ مَن يَسعَى إبراهيم عليه السلام. وينطلق بسرادق العرش وينادي « إلهي وسيدي: أنا خليلك إبراهيم ارحم اليوم شيبي، لا أسألك إسحاق

---

(١٤) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت: جاء مصداق ذلك في القرآن الكريم.
قال تعالى: ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً. ولا تجزون إلا بما كنتم تعملون﴾ الآية ٥٤ من سورة يس.
وقال تعالى: ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾ الآية ٢١ سورة الطور.
وقال تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ الآية ٣٨ سورة المدثر.

(١٥) زفيرها: شدة ريحها ،قال تعالى: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها شهيقاً وزفيراً﴾ الآية ١٣ من سورة الفرقان.

(١٦) ولكنَّ عذاب الله شديد: وقد جاء على سبيل التحذير والحث على التقوى في سورة الحج من أولها الآيتان ١، ٢، قال تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم: إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت. وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾.

ولدي، ولا إسماعيل» فيقول الله سبحانه وتعالى:

«يا إبراهيم: هل رأيت خليلاً يعذب خليله؟» ثم ينادي موسى عليه السلام ويتعلق بساق العرش ويقول: «أنا كليمك موسى - عليه السلام - لا أسألك إلا نفسي. لا أسألك هارون أخي. نجني من أهوال جهنم» ثم يقبل عيسى عليه السلام باكياً. ويتعلق بسرادق العرش وينادي «إلهي وخالقي. أنا عيسى روحك وكلمتك لا أسألك إلا نفسي، نَجِّني مِن أهوالِ جهنم».

★ ★ ★

ثم ترتفع الأصوات بالصِّياح والبكاء... فينادي محمد ﷺ: «إلهي وسيدي، لا أسألك اليوم... نفسي. إنما أسألك أمتي» فتنادي جهنم: من ذا الذي يشفع لأمته، وكل نفس لا تشفع إلا لنفسها؟ فيقول لها مالك «قري يا ناري عينا، فهذا محمد ﷺ يشفع لأمته». فتقول النار: إلهي وسيدي: نج محمداً وأمته من خزيي ولهيبي وأليم عقابي، فإنهم الضعفاء لا يصبرون على ذلك.

★ ★ ★

ثم يجرها الزبانية، حتى ينصبوها بساق العرش فتسجد بين يدي ربها سبحانه وتعالى. فيقول الله تعالى: «أين الشمس؟» فيؤتى بها بين يدي الله عز وجل. فيقول الله تعالى «أنت أمرت عبادي لك بالسجود؟» فتقول: «إلهي وسيدي، سبحانك، كيف؟.. آمرهم بذلك، وأنا في رِقِّ العبودية؟» فيقول الله تعالى: «صدقت». ثم يزاد في حرها سبعين ضعفاً ثم تدنوا من رؤوس الخلائق.

★ ★ ★

قال ابن عباس - رضي الله عنه، فيأخذ الناس العرقُ حتى تلتجم. والشمس تُغْلي أدمغتهم. كغليان القدور. وتصير بطونهم كالزقوق[١٧]. والدموع تجري

---

(١٧) الزقوق: جمع زق: وهو الإناء الواسع كالجرة والقلة.

كالمزاريب[١٨] . وقد ارتعت الرنَّة[١٩] بين الأمم . والنبي ﷺ قد شد مِيزَرَه[٢٠] . وفاضت دموعه على خديه - وهو مرة ساجدٌ أمامَ العرشِ ومرةً راكعٌ يشفع لأمته . والأنبياء ينظرون إلى جزعه وبكائه . ويقولون « سبحان الله ، ما أتعبَ هذا العبد الكريم على الله في شأن أمتِه » .

★ ★ ★

وعن ثابت البناني ، عن عفان النهري ، قال : دخل النبي ﷺ على فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، فوجدها تبكي ، فقال : « يا قرة عيني : ما الذي أبكاك ؟ قالت ذكرت قول تعالى : وحشرناهم[٢١] فلم نغادر منهم أحداً » فقعد النبي ﷺ وقال : « يا قرة عيني ، لقد ذكرت يوماً عظيماً ، ثم قال لها : يا فاطمة ، تحشر أمتي . عراةً ، حفاةً ، عطاشاً ، أوازرَهم على ظهورِهِم ، ودُموعُهُم تجري على خُدودِهِم » فقالت فاطمة رضيَ الله عنها : « يا أبتاه أما تستحي النساء من الرجال ؟ » فقال النبي ﷺ : يا فاطمة : « إنَّ ذلكَ اليوم كل نفس مشغولة بنفسها ، أما سمعت قول الله تعـالى : « لكُلِّ امرىء منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيهِ[٢٢] . » فقالت فاطمة : « يا أبتي : أين ألقاك يوم القيامة . فقال : تجديني يوم القيامة على الحوض . أنا وأبو الحسن علي - رضي الله عنه أسقي أمتي من العطش ، قالت : فإن لم أجدكم على الحوض ؟ قال تجديني على الصراط ، والأنبياء حولي وأنا أقول : رب سلم أمتي ، رب سلِّم أمَّتي ، والملائكة يقولون آمين . آمين » .

★ ★ ★

---

(١٨) المزاريب : جمع مزراب . وهو ماسورة تجلب الماء من أعلى إلى أسفل .

(١٩) الرَّنَّة : شدة الأصوات الأصوات .

(٢٠) ميرزة : أي مئزرة وهو الثياب . كناية عن الاستعداد لأمر هام .

(٢١) وحشرناهم : الآية الكريمة رقم ٤٧ من سورة الكهف . ﴿ويوم تسير الجبال . وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾ .

(٢٢) لكل امرىء : الآية الكريمة رقم ٣٧ من سورة عبس ، وقبلها : فإذا جاءت الصاخة : أي الضجة التي تصم من سمعها . فتفقده السمع - المصحف المفسر يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه .

ثم قال ﷺ : فيأتي النداء من قبل الله عز وجل « تتبع كل أمة ما كانوا يعبدون » .

فيروح كل أمة إلى ما كانت تعبد ، ثم تمد جهنم عنقها فتلْتَقِطَهُم كما تلتقط الطيور الحب .

وإذا بالنِّداءِ من قِبَلِ الله عزَّ وجلَّ :

« من هؤلاء الواقفون ؛ ؟ فينادون : نحن أمة محمد ﷺ وهم يقولون لبعضهم بعضاً : سيرُوا بنا نطلُبُ نبيَّنا محمدّاً ﷺ : فيسيرون ثلاث زمر . المشايخ زُمُرَةٌ والشباب زُمُرَةٌ ، والنِّساءُ زُمْرَةٌ ، فيطوفون على المنابر ومنابر الأنبياء منصوبة ، في عَرَصاتِ القيامة . وأمة محمد ﷺ يطلبون منبر نبيهم ﷺ وهو أقرب المنابر وأحسنها ، وأعظمها ، وأبهاها ، فإذا بآدَمَ عليه السلام ومعه حواء عليها السلام ، تحت مِنبر النبيّ ﷺ فتسمع حواء صياح أمة محمد ﷺ فتنظر إليهم وتقول :

« يا آدم ، عصابةٌ مِن ذرِّيتكَ من أمة محمد ﷺ ، حسان الوجوه [٢٣] ، ينادون ، أين محمدُ ﷺ ، فيقوم اليهم آدم - عليه السلام ، ويستقبلهم . فإذا نظر إليهم ، يقول : يا أولادي : من أي الأمم أنتم ؟ فيقولون : نحن من أمة محمد ﷺ ، قد لحقت كل أمة بما كانت تعبد وبقينا نحن ، والشمس من فوقنا تطبخنا ، والنار وهيجها [٢٤] يحرقنا . وقد ثقلت علينا أوزارنا . فاشعفع لنا إلى الجبار يُحاسبُنا ، فإمّا إلى الجنةِ ، وإمَّا إلى النَّارِ ، فيقول آدم إليكم عَنِّي . فإني مشغولٌ بحالي وبذنبي . أما سمعتم قول الله تعالى ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ [٢٥] ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي أمضوا إلى نوح عليه السلام : كَهْلِ المسلمين وأطولهم عمراً وأحسنهم صبراً » .

---

(٢٣) حسان الوجوه : من أثر الوضوء .

(٢٤) وهجها : شدة ريحها الحار .

(٢٥) ﴿وعصى آدم ربه﴾ الآيتان الكريمتان رقم ١٢١ - ١٢٢ من سورة طه .

فيذهبون إلى نوح عليه السلام فإذا رآهم، قام قائماً وسلّم عليهم. فيقولون: يا جدنا نوح. إشفع لنا إلى ربك يَفْصِلُ بيننا. ويبعث منا أهل الجنة إلى الجنة. وأهل النار إلى النار. فيقول: «أنا مشغول بخطاي، إني دعَوْتُ على قومي، فأهلكتهم [٢٦]، وأنا أستحي من ربي عز وجل. إذهبوا إلى إبراهيم الخليل، فيسألونه مثل نوح فيقول لهم، إني كذبت في عمري ثلاث كذبات [٢٧]، وأنا خائف من ربي، امضوا إلى موسى، كليم الله عليه السلام». فيأتون موسى عليه السلام. فيسألونه الشفاعة، فيقول: «إني مشغول بخطيئتي. إني قتلت نفساً [٢٨] بغير حق وليس قتله باختياري. ولكني وجدته يَسْطُو على رجُلٍ مسْلِمٍ ويُريدُ أن يضربه. وأنا فزعت، لا يؤذيه، فوكزته فرقع ميتاً فأنا خائف من ربي عز وجل - أن يطلبني بذنبه، أمضوا إلى عيسى عليه السلام».

فيأتون عيسى - عليه السلام - فيقول لهم:

«إن النصارى لعنهم الله اتخذوني وأمي إلَهَين [٢٩] من دون الله. وأنا أستحي من ربي أن أسأله اليوم حتى في أمّي مريم» فإذا بمريم وخديجة وآسية. وفاطمة عليهم السلام جلوس تحت العرش. فلما نظرت مريم إلى أمّة محمد ﷺ قالت «هذه أمة محمد ﷺ: قد غاب عنهم نبيهم» فيقع صوت مريم في أذن محمد ﷺ: فيقول آدم «هذه أمّتُكَ يا محمّد. دائرينَ عليكَ لِتَشفَعَ لهم إلى الجبار»

(٢٦) فأهلكتهم كما جاء في سورة نوح من الآية الكريمة ٢٦ ونصها: ﴿رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً﴾.

(٢٧) ثلاث كذبات: الأولى منها في قوله تعالى: بل فعله كبيرهم هذا؟ الأنبياء.

(٢٨) إني قتلت منهم نفساً: جاء في الآية الكريمة رقم ١٥ من سورة القصص: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه. فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه. فوكزه موسى فقضى عليه قال: هنا من عمل الشيطان. انه عدول مضل مبين﴾.

(٢٩) إلهين من دوني: وهو معنى آية الكريمة رقم ١١٦ من سورة المائدة ﴿وإذ قال الله: يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك: ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾.

فيرتفع النبي ﷺ على منبره. وينادي هلموا إليّ يا من آمنوا بي ولم يروني. وإذا بمناد ينادي «يآدم: أجب ربّكَ، فيقول آدم: يا محمّد قد دعاني رَبّي أن يَسألَني. فينطلق آدم إلى ربه وهو خائف، فيقول الله تعالى: يا آدمَ: فابعث خلقاً من ذريتك إلى النّار، فيقول: إلهي وسيدي. ابعث إلى الجنة ولم أبعث إلى النار، فيقول الله تعالى: «ابعث من كل ألف واحداً إلى الجنة، وتسعمائة وتسعة وتسعين إلى النارِ، فيبكي آدم عليه السلام. فيقول الله تعالى: «لولا أنّي لعنتُ الكاذبِينَ، وحرَّمتُ الكذِبَ لَرَحمتُ أولادَكَ بأجمعِهِم، ولكنْ جعلتُ الجنةَ، لمن أطاعَني، والنَّارُ لمنْ عَصاني، ولا أُخْلِفُ الميعادَ، يا آدمَ، امضِ إلى الميزان وقِفْ عندَه، فمن رجَحَت حسناتُه على سيِّئاتِهِ مِقدارَ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ فَخُذ بيدِهِ، وأدخَله الجنةَ بلا مشاورة، إني قد جعلتُ لهم الذنوبَ بواحدةٍ، والحسنةَ بعشرِ أمثالِها[٣٠]، لتعلمَ أني لا أُدخل النّارَ إلاَّ كلَّ شاردٍ متمرِّدٍ، عاص لأمري متعدِّي» فيقول آدم: «إلهي وسيدي. أنتَ أولَى بالحسناتِ مِنّي وأنتَ عَلاَّمَ الغيوبِ» فينادي مناد من قبل الله تعالى «يا محمّد، قَدّم أمّتَكَ للحسابِ، وعبورهِم على الصراطِ، والصراطُ ممدود على شفيرِ جهنَّمَ طوله، خمسمائة عامٍ» ومالك قائم على بابهِ، وهوَ يُنادي: «يا محمّد: من أتى إليَّ من أمَّتِكَ، ومعه إجازةٌ منَ اللهِ تعالى، أجازَ، وإلاَّ خابَ وسَقَطَ في النارِ، يا محمد: قُل للمُخفِّينَ، جُوزُوا، وقُل للمخفِّين حطوا» فيقول النبي ﷺ:

«يا مالك، بحق اللهِ عليكَ، أن تحولَ وجهكَ عن أمَّتي حتى يجوزوا، ولا تتقطَّع قلوبهُم من النظرِ إليكَ» فيحول وجهه. ثم تفترق أمّة محمّد ﷺ: ثلاثُ فرقٍ، وقيل عشر[٣١] فرقٍ ثم يتقدَّمُ النبي ﷺ ويقول: أتبعوني يا أمّتي. فهذا الصراط. فيتبعه الزمرة الأولى، كالبرق الخاطف، والزمرة الثانية، كالريح العاصِف، والزُّمْرَة الثالثة كالجرادِ المضمرِ، والزمرة الرابعة: كالطيرِ المسرعِ،

---

(٣٠) بعشر أمثالها: وردت الآية الكريمة ١٦٠من سورة الأنعام، ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها. ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها. وهم لا يظلمون﴾.

(٣١) فرق ثلاث، وقيل، عشر فرق: من القائل بالثلاث، ومن قائل بالعشر؟

والزمرة الخامسة تَعْدوا والزمرةُ السادسةُ تمشي مَشياً، والزمرة السابعة تقوم وتَقعُدُ، وهم يلهثون من التعب، وأوزارهم على ظهورهم، والنبي ﷺ واقف على الصراط، وكلما نظر إلى كُلِّ واحدٍ من أمّتِهِ قد تعلَّق بالصراطِ، أخذ بيده، ونَهّضَهُ.

والزمرة الثامنة، يسحبون على وجوههم بالسلاسل لكثرة خطاياهم، وذنوبهم وهُم يُنادونَ، وامحمداه وامحمداه، والمصطفى ينادي: «رب سلم أمّتي، رَبِّ سَلِّم أمّتي ثمّ تقومُ الزمرةُ التاسعةُ والعاشرةُ على الصراطِ لا يؤذَنُ لهم بالعُبورِ.

★ ★ ★

وقيل: إنّ على بابِ الجنةِ شجرةٌ عظيمةٌ لها أغصانٌ لا يحصي عددُها إلاّ الله سبحانه وتعالى. وعليها الأطفال الذين في دار الدنيا، وهم ابن شهر، وابن ثلاث أشهر وأقلُّ من ذلك وأكثر، إلى دون البلوغ».

فإذا نظروا إلى أبائهم وأمهاتهم قد أقبلوا يدخلونَ الجنةَ يتلقونهم بالأكواب والأباريق، ومناديل السُّندُسِ، والاستبرق، يسقونهم من العطش يوم القيامة، ويدخلون معهم الجنة.

ويبقى من لم ير أمه ولا أباه، يرفعُ صوته بالبكاء، ويقول الجنةُ حرامٌ عليَّ حتى أر أبي وأمّي.

ثم يجتمع الأطفال الذين لم يروا أباءَهُم وأمّهاتهم. ويقولونَ قد بقينا أيتاماً في الدُّنيا والآخرةِ، فتقول لهم الملائكةُ: إنَّ أباءَكُم وأمّهاتِكم قد ثَقلتهُم أوزارهم، وقطعتهُم عن الجنَّةِ ذنوبُهُم، فيبكونَ بكاءً شديداً، ويقولونَ: نقعُدُ هاهنا، ننتظرهم على باب الجنّة، عسى يعفو المولى عنهم، ويجمعُنا بهم.

★ ★ ★

وأما أصحاب الكبائرِ، فمحبوسونَ على أوّلِ عقبَةِ الصِّراطِ يقال لها، عقبة المرصاد، وقد تعلقت بأرجلهم كلاليب الصراط، ثم يعبرُ النبيّ ﷺ على الصراطِ

ومعه الصالحونَ والسابقونَ، والمطيعون، لأمر اللهِ، خلفه، والراياتُ منشوراتٌ خلفه. ولواء الحمد معقودٌ على رأسه. فإذا قارب لواؤه بابَ الجنة. رفع الأطفالُ أصواتَهم بالبكاءِ فيقول النبيّ ﷺ:

«ما شأنُ هؤلاء الاطفال. فيقول الملائكة، هؤلاء يبكون على انقطاع أبائهم وأمّهاتهم عنِ الجنَّة. فيقولُ النبي ﷺ «سوف أكشف أخبارهُم، وأشفعُ فيهم إن شاءَ اللهُ تعالى، ثمَّ يدخلُ الجنة. فيستقرَّ كلُّ قومٍ في منازلهم. ونسألُ اللهَ تباركَ وتعالى من فضلهِ أن يدخلنا الجنةَ، بمنِّهِ، وكرمِهِ، آمين.»

★ ★ ★

قال صاحبُ الحديث: ثم يَرفعُ مالكٌ نظرَهُ إلى أهلِ الكبائرِ وهم على الصراطِ، والكلاليبُ قد تعلقت بهم. فيقولُ الزبانيةُ: مَن هؤلاء الأشقياءُ؟ فيقولون: هؤلاء أهل الكبائرِ، من أمّة محمد ﷺ فيقولُ مالكٌ: قد مُلئَت أبوابُ جهنَّمَ، وبقي البابُ خالياً. وهو لأصحابِ الكبائرِ من أمة محمد ﷺ فامضوا إليهم معشر الزبانية، وقولوا لهم من أيِّ الأممِ أنتم فيقول: مِن أمَةِ القرآن، وينسون ذكرَ محمّدٍ ﷺ، مِن هَوْلِ يومِ القيامةِ. فتخبر الزبانيةَ مالِكاً فيأمرُهم، أن يتعلقَ كلُّ واحدٍ منهم بواحدٍ من أصحابِ النَّارِ وينزلوهم مِنَ المِرصادِ، طريقَ جهنَّمَ، فيأتيهم الزبانيةَ ويقولون لهم: ما لكم تخلفتم عن نبيكم. ولم تجوزوا على الصراط؟ فيقولون: نحن أقوام نهانا ربنا عن أكل الحرام، فلم ننتهي، وأكلنا، ونهانا عن شرب الخمر فشربنا ونهانا عن الزنا فزنينا، وأمرنا بالصلاة ففرطنا، وبحقوق الله ضيعنا، وليس لنا من سبيل نعبر على الصراط. وقد تعلقَّت كلاليبُ الصراط بأرجلنا، قال: فتفك الزبانية الكلاليب عن أرجلهم،ويقولونلهم، سيروا معنا في هذا الطريق، فيسيرون مع الزبانية، في طريق مظلمة، صعود وهبوط، وخسف وسوء، وحر ووهج، ودُخانٌ، فيقولون: يا ويلنا، ما أصعب هذا الطريق، فتقول لهم الزبانية، يا مساكين يا أشقياء، هذه طريق جهنم، فإذا سمعوا ذلك من الزبانية قعدوا، فيتعلق بهم الزبانية، ويجرونهم فإذا جروهم، صاحوا:

واويلاهُ، واحُزناهُ، دعونا نسترح، فقد بلغ منا الجهد والتعب. وبقيام على ممرنا بالمرصاد، وإذا بالنداء من قبل الله العلي الأعلى «يا معشر الزبانية، ارفقوا بالعصاة، من أمة محمد ﷺ، إن أرادوا القعودَ فاقعدوا معهم وإن قاموا فقوموا معهم، فسوف تلحقهم جهنم» فيقعدون ساعة، ثم تجرهم الزبانية، فإذا وصلوا إلى الطبقة، وجدوا باباً من حديد أسود، شراريفه، يقطع منها لهيب النارِ، وأرضه من رصاص يغلي وسقفه من نحاس، وحيطانه من حجارة الكبريت ومالك جالِسٌ على كرسي من نارٍ، عظيم الخلق، هائل الصورة، لو أشرف على أهل الدنيا لماتوا فزعاً وخوفاً منه، وصوته كالرعد القاصف. فينظر إليهم مالك، ويقول لهم: معشر الزبانية هؤلاء الأشقياء، من أيِّ الأمم؟ فيقول الزبانية من أمة محمد ﷺ فيقول: ويلكم أما كان في القرآن آية تنهاكم عن معاصي الله تعالى فيقولون بلى ولكن غلبت علينا شقوتنا. وكنا قوماً ضالين[٣٢]، سمعنا وخالفنا وعصينا.

★ ★ ★

قال رسول الله ﷺ: فأتى إلى مالك بكتاب فيه: «بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، من العزيزِ الحكيمِ، إلى مالكٍ خازنِ النار، قد وردَ عليكَ عصابةٌ، من أمةِ محمد ﷺ، من أصحاب الكبائر، فخذهم بالعذاب. ولا تسود وجوههم، فقد كانوا يصلون في بعض الأوقات ولا تقيد أرجلهم، فقد كانوا يمشون إلى المساجد، ولا تقلَّ أيديَهُمُ فقد كانوا يبسطونها إلي بالدعاء ولا تسقيهم الحميم. فقد كانوا يصومون شهر رمضان، وأمرهم أن يطأوا النار بأرجلهم فيقول مالك: ادخلوا النَّارَ بأقدامِكُم، فيقولون: يا مالك، دعنا نبكي على أنفسنا قبل أن ندخلَ النارَ، فيقول: يا أشقياء:

ابكوا: إن كان ينفعكم البكاء، ولو كان بكاؤكم في دارِ الدُّنيا، ما مستكُمُ النارُ أبداً.

---

(٣٢) ضالين: وهذا مصداق لما جاء في الآية الكريمة رقم ١٠٥ والآية الكريمة رقم ١٠٦ من سورة المؤمنون.. وهما: ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون. قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين﴾.

وإذا بالنداء من قبل العلي الأعلى:

«يا مالك: لا تعاتب الأشقياء من أمةِ محمَّدٍ ﷺ وأدخلهمُ النارَ والعذاب».

فيقول مالك: قد سمعتم النداء، يا معشر الأشقياء ادخلوا النارَ فلا عُذْرَ لَكُم.

قال: ثمَّ يتفرقون على ثلاث فرق:

الشباب ناحية، والشيوخ ناحية، والنساء ناحية. ويدفعُهُم مالك إلى النَّارِ، دفعةً واحدةً. فيجدونها تأكلُ بعضها بعضاً، فيرجعون هاربين، وينادون الشبابَ: واشَباباهُ، والشيوخ: وامشيباهُ، والنساء: واضعف بدناه، وهتك ستراه، واحسرتاه، وواويلاه. فتخرج من باب جهنم لسان تلفحهم. فيغضون أبصارهم أجمعون، والنار تموج بينهم. وتقولُ لهم: يا فلان، ويا فلانة، أنا أعرفكُم كما تعرفَ الأمُّ أولادها، ماضيعت فريضة من فرائضِ الله تعالى: إلا كتبت إسمكَ على مقامي، وأغلالي، فيضاجون بالبكاء والعويل، فتقوى عليهم بلهيبها، فيقولون: نشهد أن لا إله إلاَّ اللهَ، ونشهدُ أنَّ محمَّداً رسولَ اللهِ. فترجعُ عنهم النَّارَ، وتقول: إنَّ أمَّةَ محمَّدٍ ﷺ قوماً، لا يَقدِرونَ على حَرِّي وعَذابي، وإذا بالنِّداء مِن قِبَلِ اللهِ جَلَّ جلالُه: «يا نارُ، احرقي، يا نارُ هيجي، يا نار كلي، ولا تفتري، فقد اشتد اليوم غضبي على من عصاني».

ثم يقول الله عز وجل: يا مالك: «دع النَّارَ، تفتصل بهم، فهي بهم من الوالدة بولدها تعرف كل واحد منهم، بما يستحقه من العذاب».

قال: فتحمل النارُ عليهم: فمنهم مَن تأخذُهُ النَّارُ إلى صدرِه، ومنهم مَن تأخذُهُ إلى ركبتيه، ومنهم مَن تأخذُه إلى صرتهِ، فإذا دَنَت النَّارُ إلى وجوههم قال اللهُ سبحانه وتعالى: يا نارُ كُفِّي عن وجوهِ سجَدَتْ لي فليس لكِ على موضعِ السجودِ سبيل. فتوقدُ النَّارُ عليهم، وتنضجُ جلودُهُم، وتقتطِعُ عُروقَهُم وتنقطِعُ أصواتُهُم، ويخمدونَ من شدَّةِ العذابِ فيقولُ الجبَّارُ جلاَّ جلالَهُ:

« يا مالك: ما لي، لا أسمع أصواتَ الأشقياء من أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ ». فيقول مالك:

« إلهي وسيِّدي: قد أكلتِ النَّارُ لحومَهُم، وأنضَجَتْ جلودَهُم وقطَّعَت عُروقَهُم. وبقيت أرجلِهم بين أطباقِ النيران ». فيقول الله سبحانهُ وتعالى:

« يا مالك، جدِّدْ على الكافرينَ العذابَ ».

فيصيح مالك، بالنَّارِ. فيصير أعلاها أسفلها، وأسفَلُها أعلاها. فتسمعُ أمَّةُ محمَّدٍ صُراخَ الكافرينَ وضربَ المقامعَ فيهم. فتفزعُ أمَّةُ محمَّدٍ ﷺ فيفروا بين أطباقَ النيرانِ هاربينَ، ويقولونَ يا مالِكُ أتُريدُ أن تجددَ علينا العذابَ؟ فيقول:

« ما أمرتُ فيكم بشيءٍ فيقولونَ: يا مالِكَ، أما تَرحَمْنا فيقولُ: كيفَ أرحمُكُم. وأرحمُ الراحمين غضبانٌ عليكم فيُنادونَ: يا أرحَمَ الرَّاحِمينَ إرحمنا، قد نضجت منا الجُلودُ. وتقطَّعَت منَّا العُروقُ، وعميَتْ مِنَّا الأبصارَ، واسوَدَّت منَّا العِظامَ، إرحمْنا يا أرْحَمَ الرَّاحِمينَ ». فيقول:

« أين كلمة الإخلاص. من مات منكم عليها فليستفث بها. إلى الله سبحانه وتعالى ».

فيصيحون بأجمعِهم، بشهادةِ أن لا إلهَ إلاَّ اللهِ. وأنَّ محمَّداً رسولَ اللهِ فترتفع أصواتُهُم فَتَسْمَعَ سيِّدَتُنا فاطمةُ سلامُ اللهِ تعالى عليها أصواتَهُم فتقول: « إني أسمعُ أصواتَ أمَّةِ أبي بين أطباق النيران ». فيَسمَعُ جبريلُ عليه السلامَ قولَ فاطمةَ رضي الله عنها، فيقول « لِأعْلِمَ محمَّداً »، فينادِيهِ الحقُّ، جَلَّ جلالَهُ، يا جبرائيلُ قد ارتفعتْ إليَّ ضجة العصاة من أمَّةِ حبيبي محمَّدٌ ﷺ: بكلمةِ التَّوحيدِ. فامض يـا جبريلَ إلى مالكَ، خازنَ النَّارِ، وأمرهُ أن يخففَ عنهم العذابَ قال: فيأتي جبريل عليه السَّلامُ إلى مالك فيقول له: يا مالكَ يقول ربُّكَ: « إفتح على أهلِ الكبائرِ من أمَّةِ محمد ﷺ بابَ النارِ، وخفِّف عنهم العذاب ».

ويفتح الباب فينظر إليهم جبريل عليه السلام. فيؤلمه حالهُم فيبكي جبريلُ،

فيقولونَ: من أنت أيها الملك الرحيم القلبَ. فما رأينا مُذ خرجنا مِن قبورِنا أحداً هنا غيرك؟ فيقول جبريل عليه السلام: «أنا جبريلُ الذي كنتُ أنزِلُ بالرسالةِ على نبيِّكُم محمَّد ﷺ». فيقولونَ: يا حبيبَنا يا جبريلَ أما تَرى ما صنعَتِ النّارُ بنا. فيقولُ: «إن نبيَّكُم لم يعلَم بكم. فهل لكم إليه حاجةٌ أو رسالةٌ فيقولونَ: إذا رأيت محمَّداً ﷺ: فاقرِأهُ مِنّا السلامَ وأعلِمهُ بنا وقل له: إنَّ الكفارَ يعيِّرونَا. فيقولونَ لنا: ما تَرَوْا نفعَكُم الإسلامُ. صِرنا نحنُ وأنتُم في النّارِ سواء».

قال فيأتي جبريلُ عليه السلامَ حتى يقفَ بينَ العليِّ الأعلى فيقولُ له سبحانهُ وتعالى: «يا جبريلُ. ما قالوا لكَ الأشقياءُ؟» فيقول حمّلوني رسالةً إلى نبيِّهم محمد ﷺ وهي كذا وكذا فيقولُ له ربُّه. بلِّغْ رسالتَهُم. فيأتي جبريلُ، فيقفُ على بابِ الجنَّةِ، والنبي ﷺ جالسٌ في الوسيلةِ: وهي قصرٌ من دُرَّةٍ بيضاءَ. وبيدِهِ الكاسُ. وعلى رأسِهِ تاجُ الكرامةِ. وعن يمينِهِ آدمَ ونوحَ وإبراهيمَ وعلي بن أبي طالبَ والحسنَ والحسينِ عليهمُ السلام.

وعن يسارِهِ صالحُ وشعيبُ ويونسُ ويعقوبَ. والأنبياءُ بين يديه. وداودُ يقرأُ الزَّبُورَ بَينَ يديْهِ والمؤمنونَ حولَهُ في فرحٍ وسرورٍ. فينادي جبريلُ عليه السلامُ إليه وهو يبكي. مما رأى من عذابِ أهلِ الكبائرِ من أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، فيقولُ: «السلام عليك يا محمّد». فيقولُ: «وعليكَ السَّلامُ يا أخي يا جبريل». فيقول جبريل: «إذْن مني يا رسولَ اللهِ حتى أضع جَناحي على فؤادِكَ لا يرجِفُ» فيضع جناحَه على فؤادِهِ. ويقول:

«يا محمّد أنتَ تتلذَّذُ في الجنَّةِ. وعصابةٌ من أمَّتِكَ يعذَّبونَ بالنّارِ. وهم يقرأونكَ السَّلامَ. ويقولونَ لكَ كذا وكذا». فيقولُ النبيُّ ﷺ أين هم، يا أخي يا جبريل. ثم يسقِطُ التاجَ عن رأسِهِ المبارَكَ، ويَسقُطُ الكاسَ مِن يدِهِ. ويُنادي: «يا معْشَرَ الأنبياءِ أدرِكوني». فعند ذلكَ يقومُ إليه البرّاقُ، فيقولُ: ما أصنع بالبراق وأمتي بين أطباقِ النيرانِ يعذَّبونَ..

فيأتي النداءُ من قبلِ الله تعالى: «يا معشرَ الأولياء والأنبياء إركبوا مع محمّدٍ

ﷺ » فيخرجون معه، هو قدّامَهُم وهم خلفَه حتى يأتي إلى العرش فيَخرَّ ساجداً، ويسجُدَ الذينَ معه خلفه. فيقولُ اللهُ عز وجلَّ « يا محمَّد إرفع رأسَكَ، واسأل تُعْطَ، واشفَع تشفع ليس هذا دار عبادة ولا ركوع ولا سجود، هذا دارُ سعادةٍ ووجود ». فيقولُ النبيُّ لله: « يا ربَّ أمتي ،أمتي، ألم تَعْهَد إليَّ أنك لم تخزني في أمَّتي ؟ » فيقولُ اللهُ عز وجلَّ: « يا محمَّد إنهم أقوامٌ أمرتُهُم بالمعروفِ فعصَوني ،ونهيتهم فخالَفوني، ولم يتوبوا منَ الذّنوبِ ولا مِنَ الحرامِ بالتوبةِ إليَّ، في دارِ الدُّنيا، وإني قد شفعتُكَ اليوم فيهم، امضِ يا جبريلُ أنت ومحمَّد ﷺ إلى خازنِ النَّارِ وقُل له، يا مالك: أخْرِج مِنَ النَّارِ مَن في قلبِهِ مثقالَ ذرَّةٍ مِنَ الإيمان ».

فيمضي النبيُّ ﷺ وجبريلُ معه، وجميعُ الأنبياء والأولياء خلفَه، حتى يأتي إلى مالكَ، فيقولُ جبريل عليه السلام « يا محمَّد: قف مكانكَ، فإنك لا تقدِر أن تنظرَ إلى أمَّتِكَ وهم في النَّارِ » فيقولُ النبيُّ ﷺ « دعْني يا جبريلُ أنظُر إلى ما صنعتْ النَّارُ بهم »، فيسيرُ النبيُّ ﷺ فيتلقونَهُ أولادُ الأشقياء، فيتعلقونَ به. ويعدُونَ[٣٣] خلفه وبين يديه وهم يبكونَ، ويقولونَ: « يا رسولَ اللهِ: دخلَ آباؤنا وأمّهاتُنا النارَ» فيقولُ النبي ﷺ « اليومَ يجمَعُ اللهُ شملَكُم به إن شاءَ اللهُ ». ثم يقبلُ مسرعاً نحو مالك، فإذا نظرَ مالكٌ إلى النبيِّ ﷺ حول وجهِهِ حياءً منهُ، وقال له « يا سيِّدي يا محمَّد، لا تلمني، فإنِّي عبدٌ مأمورٌ » فيقولُ النبيُّ ﷺ « صِفْ حالَ أُمَّتي ؟ » فيقولُ مالكُ « كيفَ حالُ أقوامٍ ؟ أكلَت النَّارُ لُحومَهُم، واسودَّت عظامَهُم ومُزِّقَت جُلودَهُم » فيقول: « افتحِ الأطباقَ، لأنظرَ أمتي »، فيفتح الأطباقَ مالكٌ، فينظرُ النبيُّ ﷺ جهنَّمَ. فتقولُ له جهنَّمُ إليك عني، فإني قد حُرِّمْتُ عليك، وحُرِّمْتَ عَلَيَّ، فيقولُ النبيُّ ﷺ:

« يا جبريل، أريدُ أن أنظُرَ إلى أمتي وهُم في النارِ فيمدُّ جبريلُ جناحَهُ له. فينظُرَ النبيُّ ﷺ إلى أمَّتِهِ فإذا قد صاروا فَحْماً ». فيناديهم النبي ﷺ:

يا أمتي، يا أمتي.. يعز عليَّ ما قد نالكم من العذاب.

---

(٣٣) ويعدون: أي يجدون: والعدو الجري بشدة.

فإذا نظروا إليه بكوْا بأجمعِهِم، وينادي بعضُهُم بعضاً: إليَّ هاهنا... إليَّ هاهنا... قد عفا عنا ربُّنا. وقد وصلنا نبيُّنا فيقولُ النبيُّ ﷺ: أخرجهم يا مالكُ فيُخرِجُهُم ضبائِرَ [٣٤] مثل ضبائِرُ الفحمِ. فينظر الرجلُ إلى ولده. ويقولُ: « اسقني يا ولَدي ». فيقولُ: إليكَ عنِّي. لست أنت أبي. أبي كان أحسن منك وَجهاً، فيقولُ: أنا أبوكَ ولكنَّ النارَ غيَّرتْ من حالي. وسَوَّدَت لوني. وتقولُ الأم لولدِها: « إسقني يا ولَدي ». فيقولُ: إليكِ عني. لستِ أنتِ أمِّي، أمِّي كانَت أحسَنُ منكِ وجهاً. فتقولُ: أنا أمُّكَ ولكنَّ النارَ سوَّدَت لوني وغيَّرَت حالي. فتفزع الأطفالُ من آبائِهِم وأمّهاتِهِم. وإذا بالنِّداءِ من قِبَلِ اللهِ تعالى عز وجل: « يا جبريل. ألقِهِم في نهرِ الحيوان » [٣٥]. فيُلقِهِم في نهرِ الحيوان. فيجري عليهم. فتبيضُّ وجوهُهُم. وتنبت لحومَهُم وعظامَهُم. وجلودَهُم، وشعورَهُم، فتعرفُ أولادهم ذلكَ الوقت. فيتعلقونَ بهم. ويقومونَ من النهر على حُسْنِ يوسف. وطول آدم. وسن عيسى. مكتوبٌ على جباهِهِم الجهنميُّونَ. عتقاءَ الرَّحمنُ منَ النارِ، ثم تخرجُ الملائكةُ لهم خِلَقاً من الجنَّةِ يلبسونَها. ثم يأخذُهُم النبي ﷺ ويوقفَهُم بينَ يديّ الله سبحانه وتعالى فيسجدونَ بين يديه عزَّ وجَلَّ فيقولُ لهم: « عبادي كيف رأيتُم نارَ جهنَّمَ فيقولونَ يا ربنا: بئسَ الدارِ .وبئسَ القرار. فيقولُ الله عزَّ وجلَّ هذا جزاءُ من عصاني. وبارزني بالمعاصي. وخالفَ أمري فإني عاقبتكُم على الذُّنوبِ. ورحَمْتكُم من أجلِ كلمةِ الإخلاصِ لا أُخلِّدُ في النارِ من ماتَ على شهادةِ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ. وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ ﷺ ». فعند ذلك يقولُ الكافرُ « يا ليتني اتخذت معَ الرَّسولِ سبيلاً » [٣٦].

ثمَّ تغلقُ أبوابُ النارِ على الكفارِ وينادي مُنادٍ: « يا أهلَ النارِ خلودٌ فلا موتٌ

---

(٣٤) الضبائر: يعني أعواد الفحم.

(٣٥) نهر الحيوان: نهر الحياة.

(٣٦) سبيلاً: وهو المقصود في قوله تعالى: في الآية الكريمة رقم ٢٧ من سورة الفرقان، ونصها: ﴿يوم يعض الظالم على يديه. يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾.

ويا أهلَ الجنَّةِ خلودٌ فلا موتٌ». ثم ينصرفُ المسلمونَ مع النبيِّ ﷺ فيدخل بهم الجنة. ويعطيهم الحقَّ سبحانهٌ وتعالى منازلَ يسكنونَ فيها. فيقولُ أهلُ الجنةِ: تعالوا بنا نتفرَّجُ على «الجهنَّميُّونَ» عتقاءَ الرَّحمنُ مِنَ النَّارِ. فيأتونَ أفواجاً أفواجاً يبصرونَهُم ويسألونَهُم. كلَّ إنسانٍ على أيِّ ذنبٍ أدخَلَهُ النَّار. فَيحدِّثونَهُم بذنوبهم. ثم يبقونَ في الجنَّةِ فيعرفونَ بتلك العلامات. فيأتونَ إلى محمدٍ ﷺ ويقولونَ «إنَّ أهلَ الجنَّةِ يعرفوننا بهذه العلامات. ونحنُ نستحي من ذلك، ونريدُ أن تشفعَ لنا إلى الجبارِ عز وجلّ. فيمحوا عنَّا ذلك». قال: فيأمُرُ اللهُ سبحانَهُ وتعالى سحابةً بيضاءَ تمطر عليهم. وتزيلُ تلك العلاماتِ من جباهِهِم. ثم يقول جبريل عليه السلام «إنّ ربّكُم يدعوكم إلى زيارته. فيقفونَ تحت سدرة المنتهى، فيخرجُ إليهم جبريلُ ومعه بنادقَ[٣٧] من ذهب. فيناولُ كلَّ إنسانٍ منهم بندقة. فتنشقُّ البندقةُ بإذن الله تعالى. فيخرجُ منها ولدان مُخَلَّدونَ. وحور عين ومعهم مناديلُ السُّندُسِ والإستَبرَقِ. فيمشونَ وخدمهم حضَّرَ المشاهدة. فتنصبُّ لهم كراسي من ذهب. وكراسي من فضة. ولهم منابرُ من نورٍ، على قدرِ منازلِهم ومراتبِهِم عند اللهِ. فيجلسونَ على تلكَ الكراسي. وأقوامٌ يجلسونَ على كثبان[٣٨] المسكِ، وعلى رأسِ كل منهم شجرةٍ لها أربعة أغصانٍ، وقيل أركات، وعلى كل غصنٍ طيرٌ رأسَه من اللؤلؤ، وعنقه من المرجان، وذنبُهُ مِن الياقوتِ يسبّحُ الله تعالى بلغاتٍ مختلفة. يطربُ الوجود. وينثر عليهم المسكَ من أجنحته والعنبر» ثم يقولُ الله تعالى: «يا جبريلُ ارفع الحجاب. حجاب نوري حتى ينظرون. أوليائي إلى وجهي الكريم بلا كيف ولا أين» ثم يقول: «السلام عليكم يا أوليائي. أنا عنكم راضٍ. فهل رضيتم؟» فيقولون: رضينا: الحمد لله الذي صدقنا وعده[٣٩]. وأورثنا الأرض نتبوأ من

---

(٣٧) بنادق: جمع بندقة.

(٣٨) كثبان: جمع كثيب: وهو الهضبة المرتفعة قليلاً عن الأرض ورملها ناعم.

(٣٩) الحمد لله الذي صدقنا وعده: إشارة إلى الآية الكريمة رقم ٧٤ من سورة الزمر. وهو قوله تعالى: ﴿وقالوا الحمد لله، الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء. فنعم أجر العاملين﴾ صدق الله العظيم.

الجنة حيث نشاء. فنعم أجر العاملين، ثم تقدم الملائكة لهم خيلاً من الياقوت الأحمر مع كل واحد منهم سبعون غلاماً. وسبعون جارية ومعهم ضبائر الريحان[٤٠]، ومجامر القوَّرِ، يتبختَرون خلفه وسبعونَ معهم صوانِيَ الذَّهبِ فيها الحُلِيّ، والحُلَلِ ما بين أخضر وأحمر وأصفر. يقولون للذين كانوا معهم في جهنم يا ساداتِنا إيش[٤١] أبطأكم عنّا. فيقولون: كنّا معوقينَ على الصراط، حتى عَفا الله عنا. فتفرحُ بهم خدمُهُم وأولادُهُم ثم يبعثُ الله سبحانَه وتعالى إليهم خدمهم وأولادُهُم ومعهم الملائكةُ تسلِّمُ عليهم ويهنئونَهُم بقدومِهم إلى الجنة. فتأذنُ عليهم الملائكة. فيأذنُ لهم فيدخُلونَ عليهم ومعهُم أطباقٌ في كل طبقٍ حقق من ياقوت احمر. وعليه قفل من ذهب. فتقولُ له الملائكةُ: افتح هذا فيفتحه فيخرجُ مئة شقة، بيضاء من حريرٍ في وسطها لؤلؤةٌ تُزهِرُ، فتنشقّ نصفين. فيخرجُ من وسطها جاريةً من الحورِ العين فينظرُ إليها الولي ويشتهيها، فيقولونَ له: الحورُ العين. تزوج بها. فإنها لك، وأنت لها، فيأخذ بيدها ويدخلُ بها إلى قبّةِ من الفضّةِ البيضاءِ فيبقى معها. مقدار الدنيا بسبعين مرّة.

لأن العتقاء من النار يزداد في حسنهم. والأمة يزداد في حسنها على الحور بسبعين ضعفاً. والعتقاء ما ليس لهم سوى الحور، لأن الآدميات: الصائمات. القائمات العابدات، من النساء يفضل حسنهن على الحور العين بسبعين ضعفا، فيكونُ الآدميةَ للمقرّبينَ السابقينَ الذينَ قال اللهُ تعالى في حقهم:

« فلا نعلم نفسٌ ما أخفى لهم من قرةَ أعين جزاء بما كانوا يعملونَ[٤٢] »

---

(٤٠) ضبائر: المراد بها أعواد الريحان.

(٤١) ايش جاء بكم: والمعنى ماذا جاء بكم. وهذه العبارة لم ترد في اللغة. وإنما هي لهجة أهل الشام حين يسألون عن شيء. فيقول ايش الشيء الفلاني. ولكن التزاماً منا بأمانة النقل نقلناها على هيئتها.

(٤٢) فلا نعلم نفس: المراد بها الآية الكريمة رقم ١٧ من سورة السجدة. ونصها ﴿فلا نعلم نفس ما أخفى لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.

جعلنا الله وإياكم منَ المقرَّبينَ السابقينَ وأجارَنا اللهُ وإياكُم من عذابهِ الأليم بحق محمدٍ خاتمَ النبيِّينَ آمين يا ربِّ العالمين. تمت والحمدُ للهِ وحده وصلى الله على سيِّدِنا محمَّدٍ وآلهِ الطيِّبينَ الطَّاهرينَ وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

كتاب

معاتبة النفس

للحارث بن أسد المحاسبي

٢٤٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم
رب يسر وأعن يا كريم

قال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي رضي الله عنه:

الحمد لله المستحمد لعباده، بلا فاقة [١] إليهم ولا حاجة، وكل مستحمد سواه فللفاقة إلى من استحمد إليه، فالله هو الغني الحميد، لا يستأهل هذا الوصف غيره، ولا يستحق سواه، وكذلك يقول في تنزيله:

(وهو الغني الحميد) [٢]

فأعظم نعمة يستحمد بها إلى خلقه: ما من به على أوليائه من معرفته، فزينه في قلوبهم، وحببه إليهم، فضلاً من الله ونعمة، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

فجمع هذان [٣] جميع مكارم الأخلاق ومجانبة دناءة الأخلاق، فطهرهم من رجز [٤] كل شر ،ومنعهم من خسيسة دناياهم، فأعزهم أنفسهم، وأغناهم به عن خلقة أجمعين.

فعليه يتوكلون، ومنه يحذرون، ورضاه ورحمته يرجون، وقطعوا أعمارهم بطاعته، والأمن في جواره، وما كان ذلك إلا بلطفه، رحمة منهم وامتناناً، فله الحمد على ما وهب ولطف.

* * *

(١) الفاقة: الفقر والحاجة.

(٢) سورة لقمان، آية: ٢٦.

(٣) في الأصل: هاتان. والمراد: حب الإيمان، وكراهية الكفر.

(٤) الرجز والرجس: الدناءة والنجس.

الظهر والبطن.. والحد والمطلع

أما ما سألت عنه من معنى قول عبد الله بن مسعود: «لكل آية ظهر وبطن، وحد ومطلع»[1].

فقد روي عن الحسن عن النبي ﷺ فقال: يعني: «مطلع قوم يعملون به».

وقد اختلف العلماء في ذلك. وأحسن ما قيل في تفسيره - والله أعلم بمعنى ذلك - ما أجيبك به.

أما ظهرها: فتلاوتها.

أما بطنها: فتأويلها[2].

وأما حدها: فمنتهى علمها[3].

وأما مطلعها: فمجاوزة حدها بالغلو والتعمق.[4]

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه ابن حبان في صحيحه، من حديث ابن مسعود بنحوه. ويقول صاحب الإحياء: «أن العلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته. وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها. والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، ومجرد التفسير لا يشير إلى ذلك، بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات المعقولات، ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بإدراكها. أنظر: (إحياء علوم الدين ١ / ٢٦٠).

(٢) يبدو أن المحاسبي يقصد بالتأويل: التفسير. وبه قال الفيروزأبادي حيث قال عن التفسير: هو الإبانة وكشف المغطى (القاموس المحيط ٢ / ١١٠) وقرر في النهاية أن التفسير والتأويل شيء واحد (٣ / ٣٣١) وقال ابن فارس: تأويل الكلام «عاقبته، وما يؤول إليه» (مقاييس اللغة ١ / ١٦٢).وقال الطبرسي: «التفسير: كشف معنى اللفظ وإظهاره. والتأويل: رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر» (مجمع البيان ١ / ٨٢).

(٣) وهنا فرق الله تعالى بين الكاذبين والصادقين ممن تلاها، أو من صادق بلغ منتهى فهمها، لأن أقل الصدق من المريد المؤمن بعد الإيمان بالآية أن يفهمها عن ربه. وإن لم يعمل بها، وإنما قصر الناس عن فهمها لقلة تعظيمها لقائلها. (المسائل في أعمال القلوب والجوارح، للمحاسبي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ص ١١٦).

(٤) ومن ذلك قوله تعالى: (وتلك حدود الله فلا تعتدوها).

ومن ذلك قول عبد الله: «لا تطلعوا حدود الله». وذكر الحديث: «إن الجنة حفت بالمكاره، والنار حفت بالشهوات»[1]. فقال: ومن أطلع الحجابَ واقع ما وراءه.

يعني: من جاوزَ حجابَ النار وقع فيها، لأن حجابَها الشهوات، وحجابَ الجنة المكروهات[2].

فمن تجاوز المكروه[3] دخل الجنة، ومن آثر الشهواتِ دخلَ النار. فعلمَ أن المطلع هو المجازوة.[4]

وكذلك التقصير في فهم الأن يدعو إلى التقصير في شكرها[5]، لأن الله تعالى طلب منا أن نكون دون الغلو، وفوق التقصير.



---

(١) حديث: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»، أخرجه: مسلم في صحيحه، حديث ١ من كتاب الجنة، وأبو داود في سننه، الباب ٢٢ من كتاب السنة، والترمذي في سننه، الباب ٢١ من كتاب الجنة، والنسائي في سننه، الباب ٣ من كتاب الإيمان. والدارمي في مسنده، الباب ١١٧ من كتاب الرقاق. وأحمد بن حنبل في مسنده ٢/ ٢٦٠، ٣٣٣، ٣٥٤، ٣٨٠، ٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤ - وابن المبارك في الزهد ص ٢٢٩.

(٢) المكاره هناك، والمكروهات هنا، يعني: ما ثقل على النفس فعله من الطاعات، أو تركه من الشهوات، لا المكروهات الشرعية التي هي قريبة من الحرام.

(٣) تجاوز المكروه، يعني: لم يعبأ بكراهية النفس للعمل وثقله عليها، فأقدم عليها مجاهداً لها.

(٤) إلا أن يعفو الله عز وجل، لأن الله تعالى أمر عباده أن يتحملوا المكروه حتى يدخلوا الجنة، وأمرهم بترك الشهوات حتى ينجو من النار.

وقال إبن القيم: «من خلقه الله للجنة لم تزل هداياها تأتيه من المكاره، ومن خلقه الله للنار لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات». أنظر: (الفوائد لابن القيم، المنيرية طبعة ١٣٤٤، ص ٣٢).

(٥) في الأصل: إلى التقصير في فهمها. واخترنا ما على هامش نسخة خاصة.

الأمن والغفلة

وقال: ثلاث خلال تلزمها قلبك:

الخلة الأولى: الإيمان بأن المقدور يأتي، وأن ما لم يقدر لا تناله، والغنى بالله.

فمن ألزم قلبه ذلك أورث قلبه ثلاث خصال:

أحدها: أن يأمن قلبه أن يفوته ما قدر له.

والثانية: أن ييأس أن ينال ما لم يقدر له.

فمن ألزم قلبه أن رزقه لا يفوته، والإياس أن ينال ما لم يقدر له، استغنى، وقل همه وخضوعه للخلق، والمدارة لهم، لأن ينال منهم منفعة [1]، فهذا هو المستغني عن غير الله [2].

والخلة الثانية: الحذر من الله تعالى أن يغفل فيزل [3]، فيسقط من عينه، لأن

---

(١) صنف المحاسبي كتاب سماه «المكاسب» تحدث فيه عن التوكل على الله في باب مستقل، قائلاً: «أن المؤمنين في جملتهم يسلم لهم عقد الإيمان بالله تعالى والتوكل عليه، فقد أقسم جل ثناؤه بنفسه أنه قسم الأرزاق بين الخلق، وأمضى الضمان بالكفاية لهم، فكان على الخلق تصديقه فيما أخبر وأقسم. فمن صدق في ذلك، كان بتصديقه وإيمانه مؤمناً متوكلاً، ومن كذب أو شك، كان معانداً كافراً، فالمؤمنون موصوفون بالتوكل على الله تعالى. فإذا عرض له شيء مما يكره الله عز وجل، ذكر النظر، وخاف المقت إن ركن إلى ذلك، وإن عرض له ما فيه نقص - وإن لم يكن محرماً - استحى من الله أن يراه مقصراً عما يحب مولاه، مع ما قد استودعه من العلم، وعرفه من عظيم قدره، وكبرياءه جل جلاله». أنظر «المكاسب» من ملحقات «أعمال القلوب والجوارح» تحقيق عبد القادر عطا ص ١٨٢. و «الأمد الأقصى» للدبوسي، من تحقيقنا، بدار الكتب العلمية.

(٢) وهذا الاستغناء عن غير الله هو الخصلة الثالثة التي يرثها من ألزم قلبه الخلة الأولى.

(٣) تحدث المحاسبي عن الغفلة في باب مستقل في كتابه «الرعاية لحقوق الله»، وقرر أن الغفلة غفلتان:

الأولى: غفلة عن نسيان وزوال ذكر، وهي غفلة الخائفين، وهي أيسر الغفلتين، لأن أقل الناس نسياناً لأسباب دينه أشدهم عناية بالقيام بحق ربه وأشدهم عناية لذلك أشدهم تعظيماً لربه. =

الحذر يوقظه، والتيقظ يذكره، والذكر ينبهه، حتى يراقب ليكه.

والخلةُ الثالثة: ذكرُ اطلاعُ الله عليه في ضميره وجوارحه، فإنَّ ذلك يورثه الحياء من الله عز وجل.

فإن عرض له شيء كرهه ربه ذكر النظر، وخاف المقت إن ركن إلى ذلك.

وإن عرض له ما فيه التقصير من الفضل[1] - وإن لم يكن محرماً - استحى[2] من الله أن يراه مع ما استودعه من العلم، وعرفه من عظيم قدرته وكبريائه مقصراً عن محبته.

وجملة ذلك: أن تغدو إلى سوقك أو غيرها، فتلزم قلبك ثلاثاً:

اليقين، والحذر، والنظر.

فباليقين يحذر، وبالحذر تيقظ، وبذكر النظر يستحي من الناظر الأعلى، جل ثناؤه تعالى.



= وأشدهم تعظيماً لربه أكثرهم معرفة بتعظيم قدر ربه.

والغفلة الثانية: وهي أعظم الغفلتين، وهي الغفلة التي معها الذكر وزوال النسيان، ولم يغفل لأنه لم يعلم، بل العلم معه قائم أن ذلك لا يرضي الله عز وجل. وسمى فعله غفلة لأنه غفل عن تعظيم قدر من يعص، وقدر شدة عقوبته، ولذلك سمي غافلاً، لأن قلبه محجوب غافل عن الأخرة. وهذه الغفلة تكون في المؤمن والكافر مع اختلافهما في المعنى. أنظر «الرعاية لحقوق الله» تحقيق عبد القادر عطا ص ٢٩٤ و «أعمال القلوب والجوارح» ص ١٥٥ وما بعدها.

(١) تحدث الإمام المحاسبي في باب مستقل في كتابه «آداب النفوس» عن «العدل والفضل». في فرائض القلوب والجوارح. وقرر أن العدل هو الفرائض والواجبات التي لا يسع المؤمن تركها من أعمال القلوب والجوارح. والفضل ما لم يفرض فعله ولم يحرم ارتكابه، ولكنه من الآداب، مثل سنن العبادات، والزهد في الدنيا، وما أشبه ذلك. أنظر «أداب النفوس» تحقيق عبد القادر عطا. تحت الطبع بدار الجيل بلبنان.

(٢) في الأصل: إستحا. خطأ من الناسخ.

احذر قسوة القلب

وقال: ينبغي للمؤمن إذا رأى القسوة من الرين[١] على قلبه عقوبة له على ذنبه: أن يخاف أن يكون الله سبحانه لما حجب قلبه عنه بالرين والقسوة، أن يحجبه غداً عن النظر إليه.

لأنه أخبر أنه عاقب من أخرجه عن ولايته بحجب قلبه عنه في الدنيا، وحجب بصره أن ينظر في الآخرة إلى جلاله[٢]، فقال تبارك وتعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجبون﴾[٣]. إحداهما تتلو الأخرى، حجاباً معاً في التلاوة: حجاب القلب في الدنيا، وحجاب العين عن النظر إلى الله في الآخرة[٤].

فإن اعترض للعبد خاطر من الشيطان ليقطعه عن الخوف من الله عز وجل فليحذر أن تحل به هاتان العقوبتان[٥].

فإن قال الشيطان: إنما أنزلها الله في الكافرين.

فليرد عليه: وإن كان قد أنزلها في الكافرين، فإن الله لم يؤمن منها كثيراً من المؤمنين، ورأي أحدهما قد حل بكثير من المسلمين[٦].

وقد حذر الله المؤمنين أن يعصوه فيعاقبهم بما يعاقب به الكافرين فقال:

---

(١) في الأصل: الران، وما أوردناه أوضح. والرين والران: سواد القلب، وظلام بصيرته من أثر الذنوب.

(٢) هذا بيان لمذهب المحاسبي في موضوع رؤية الله تعالى، وأنها في الدنيا ببصيرة القلب، وفي الآخرة بالبصر، ولكن البصر في الآخرة يقع على صفات الجلالة، لا على الذات. كما أن بصيرة القلب هي الأخرى بطبيعتها لا تقع على الذات.

(٣) سورة المطففين، آية: ١٤، ١٥.

(٤) أي أنه حجب قلوبهم عنه في الدنيا، وحجب أبصارهم عن النظر إليه في الآخرة لينزلها جميعاً، أحدهما يتلو الآخر ليس بينهما معنى ثالث.

(٥) في الأصل: هاتين العقوبتين. خطأ.

(٦) يريد: الرين على القلب، والقسوة الناشئة منه.

﴿ إتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾[1] يعني: لأعذبكم بها معهم.

وقد ذكر الكافرين بإيجابه[2]، ثم أخبر أنه يريد بذلك تخويف عباده المؤمنين، فقال:

(قل الله أعبد مخلصاً له ديني. فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين. لهم من فوقهم ظللٌ من النار ومن تحتهم ظللٌ ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون ﴾[3] فحذرهم أن يعذبهم بالنار التي يعذب بها الكافرين.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا رأى في السماء مخيلة[4] أكثر الاختلاف بالدخول والخروج، فأقول: يا رسول الله، لم تكثر الدخول والخروج؟ فيقول: «وما يؤمنني أن أكون كما قال الله عز وجل: ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبلَ أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هوما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾[5].

وقال عمر رضي الله عنه: «أما تروني أبصر رقيق العيش». وقال أيضاً لغلامه: «انضح العصيدة بالماء، فإنه يكسر حرارة الزيت، فإني سمعت الله عز وجل غير أقواماً فقال: ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾[6]

فحذر من وقع في الشهوات أن يقع به ما عاقب الكافرين، ولم يؤمن منه المؤمنين.

فعلى المؤمنين أن يخافوا أن يجمع الله بينهم وبين الكافرين في الخزي والعذاب.

* * *

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٣١.

(٢) يعني: إيجابه النار لهم.

(٣) سورة الزمر، آية: ١٤: ١٦.

(٤) المخيلة: السحاب المؤذن بالمطر.

(٥) سورة الأحقاف، آية: ٢٤. والحديث أخرجه أحمد بن حنبل في الزهد (٧٥).

(٦) سورة الأحقاف، آية: ٢٠.

احذر السلب بعد العطاء

وقال: العجب كل العجب من عبد آمن بربه، وأيقن بشدة عقوبته، وأليم عذابه، وعرف قدر ثوابه وكرامته، كيف تقر عينه، أو يـزايل الحزن والوجل قلبه، وهو يرى نفسه كل يوم في إدبار؟

وأعظم من ذلك: الأمن من إبعاد الله عز وجل له عن قربه.

فإن كان عبداً قد عوده الله قبل ذلك التوفيق، والعصمة عن معصيته، وفرغ قلبه عن الاشتغال بالدنيا [١]، وألزم قلبه التعظيم عند ذكره، وشدة الفزع منه عند نسيانه، فسلب منه ذلك، وابتلاه بأضداده، باتصال الغفلة، وكثرة النسيان، والتغميض عن تضييع الحقوق، حتى صار مباعداً عنه، مطروداً عن قربه، حيران سكران، يطلب الرجوع فما يجعل اليه بالتوفيق سبيلاً [٢].

وكيف لا يتعجب المتعجبون ممن أنزله الله بهذه المنزلة من الهوان والمذلة، والإقصاء والبعد، بعد العز والكرامة، والإقبال عليه، وسرعة الإجابة لدعوته؟

بل كان الرب سبحانه وتعالى يسارع إلى محبته [٣] من غير دعاء ولا طلب منه إليه، وهو بعد ذلك قرير العين، مسرور القلب، مشتغل بطلب الدنيا، لا يكترث لما فقد، ولا يحن إلى ما سلب، ولا يعتبر بالرجوع عما عليه عوقب.

إنما حزنه خطرات قلب لا تلبث.. وقصر عنه بقلب مشغول.

فكيف لا يدوم الحزن، ويشتغل قلبه بالله عن الطلب، وهو عن الله محجوب، ومن القرب محروم قد حل منه بالحرمان، وقد عاقبه بأن سلبه كرامة المواهب، وعز العناية، فصار مولياً عنه بعد الإقبال عليه، مشتغلاً بغير الشغل بربه.

---

(١) ليس المراد أن يكون الإنسان سلبياً في عمران الدنيا، بل يكون عاملاً بكل قوته، ولكنه غير متعلق القلب بمتاع الدنيا. بل يستوي عنده أن ينال منه وأن يهبه كله في سبيل الله.

(٢) في الأصل: فما يجعل به إليه بالتوفيق سبيلاً. وهو تحريف من الناسخ.

(٣) يسارع إلى محبته، أي: يسارع في إجابة.

وأعظم من ذلك أنه لا يشتد حزنه أن يكون الله سلبه كراماته، وعاقبه بإبعاده، لغضب منه وسقوط من عينه.

فالعجب كل العجب ممن كانت هذه منزلته!! نعوذ بالله من حلول عقوباته، ونسأله النقلة إلى ما يحب ويرضى، بتوبة يطهرنا بها من كل ما يكره، والإقبال عليه، والشغل عن الدنيا وأهلها، ونسأله أن يجعل ذلك سريعاً.

ولكن قد حق الحزن والعويل والنفس معرضة.

أنت لا تطيق غضب الله

يا نفس... ما لي أراك مطمئنة، والغالب عليك الفرح والسرور، وشواهد المقت بادية عليك ودلائل الغضب بينة فيك في كثير من أحوالك؟

قد اطمأنت وسكنت، وكثيراً ما يغلب عليك الفرح والسرور في أكثر الأحوال، وأنت ترين فيك من الله دلائل الغضب، وشواهد المقت، ثم لا تبكين، ولا لذلك تكترثين، كأنك لغضب الله تطيقين، ولعذابه تجهلين.

هيهات.. هيهات.

إنك عن دون الله لتضعفين.. ومن أقل أذى الدنيا تجزعين.. فكيف بشدة غضب الله.... وأليم عذابه؟

ولكن عقوبات الله منعتك من أن تجزعي [1]، فكيف يصنع الله بمن لا يجزع من غضبه، ولا يتوجع من أليم عذابه، ولا يصلح على آدابه، ولا يقبل عليه بالإقلاع، شكراً لدوام نعمائه، ولا ينحاش ولا يهرب إليه لما يرى من سوء آثار عقوباته في الدنيا خاصة، دون معاشه في نفسه وعياله.

* * *

(١) المراد بعقوبات الله: طمس البصيرة، وسواد القلب.

اذكر نظر الله إليك

ويحك يا نفس... ألم تري أن مولاك[1] قد أبعدك عما كان يتعاهد به قلبك من هيجان التيقظ، وقوة التنبه، والدوام على ذكره، والجزع من نسيانه، وشدة عذابه؟

لقد رغب الله قلبك في أول أمرك... وتأديباً كانت بلية الله فيك[2].. وتقريباً منه إليك.. وتحنناً منه عليك..

فنبه قلبك عن الغفلات.. ومن عليك بجود الحلاوة عند الطاعات.. وشدة التلذذ بالمناجاة.. فأصبحت وأمسيت مباعدة من الله.. مطرودة عن بابه.. منحاة من قربه.. قد حل بك منه الخذلان.

تمادين في الغفلات فلا يوقظك، ويدوم منك النسيان فلا ينبهك، وتكون منك الزلة بعد الزلة، فلا يدوم لك الحزن، ولا يطول بك الغم، بل قد قلب التنبه فيك فصار لا ينبهك ولا يذكرك.

ثم يحجبك بالعقوبة عن استعمال التذكر وطاعة التنبه.. فصرت في شر حال، ويليه منزلتين: طول الغفلة ودوام النسيان لنظر الجليل العظيم، ثم شهوتك لترك استعمال التذكر وطاعة التنبه.

فالحال الأولى: طول غفلة لقلة المبالاة بأن يطلع وينظر.

والحال الثانية: جرأة وإقدام عليه مع التذكير والتنبيه إلى أن صار ذلك يباعد منه، ويحرم الخلود في جواره.

فهل سمع السامعون بأسوأ منك حالاً؟ وهل عرف العارفون بأشر من

---

(١) في الأصل: من مولاك. وما أثبتناه أوضح.

(٢) هذا نوع من البلاء للتأديب، وتكفير الذنوب، وإعادة الإنسان إلى الصراط المستقيم، وعلامته ألا يشكو صاحبه إلى الناس، وإن ضاق بالبلاء.

منزلتك؟ ثم مع ذلك الحزن عنك زائل، والغم لك مباين، والتوجع لك غير لازم، وقد رآك مولاك في أسباب الدنيا بأضداد ذلك كله، شغلك بطلبها دائم.

لا تملين.. تنشطين وتقوين إذا رأيت الزيادات في معاشك.. وتنكسرين إذا رأيت النقصان فيه.. ولا يكون ذلك فيما بينك وبين ربك إلا في أقل الأوقات.

فقد أصبحت عند الله مفتضحة.. ومن البعد منه غير مكترثة.

لقد أصبحت وأمسيت وهو عليك غير مقبل، ولك غير مقرَّب، مقصاه منه مباعدة عنه، ولولا تفضله عليك بالعفو لسلبك نعمة الدين كلها، ولكنه يبقى من العقوبة تفضلاً وإحساناً.

من أجل ذلك وجب حبه على المطيعين العاصين جميعاً.

ويحك.. ما لك في الجهل مفعمة مغموسة.. وفي البلايا متلوثة.

ويحك.. هل عقلت من تعصين؟ بل هل عقلت من تعوقين.

ويحك.. تمادين في الغفلات فلا يوقظك ويدوم منك النسيان فلا ينبهك.

فكيف لا يغلب ذلك عليك، وأنت كل يوم في نقصان، وكل يوم لا تفرين من العصيان؟

إن تبت لم تلبثي أن ترجعي عن توبتك، وعاودت في تخبطك، وإن عزمت لم تقلعي، وإن فعلت ما عزمت عليه فمن الآفات لم تسلمي [1]، عن حب محمدة أو عجب بما عملت.

تعاهدين فتعذرين، وتعدين فتخلفين، وتحلفين بالله ثم لا تفين، فلو كنت

(١) قول المؤلف: وإن عزمت لم تقلعي، يريد العزم على ترك المعصية. وقوله: وإن فعلت ما عزمت عليه، يريد الطاعات.

جاهلة كان أخف للحجة عليك، وكان أبعد لك عن الجرأة على مولاك.[1]

ولكن عظمت عليك الحجة، ودامت منك الجرأة، إذ كنت للآثار طالبة، وللقرآن حافظة وفي الدقائق من الحكمة مناظرة، وبحسن العظات ناطقة، تدعين إلى الله وأنت منه فارة، وتذكرين بالله وأنت له ناسية، تعظمين الله بالقول وأنت بالفعل غير معظمة.

★ ★ ★

تذكر ساعة الموت

ويحك أنت اليوم مهملة... والله لك منظر[2].. وعن قليل تنقطع المدة... وتزول النظِرة[3].

ولو قد تغشاك الموت وسياقه فلقد حضرك العدم، فأعطيت النية الصحيحة حيث لا يقبل[4].

ويحك... أتدرين عمّا ينكشف الغطاء؟

أما تخافين لو بلغت منك النفس التراقي أن تبدو رسل الله منحدرة من السماء بسواد الألوان، وكلح الوجوه، وبشرى العذاب[5]، فهل ينفعك حينئذ الندم.. أو يقبل منك الحزن.. أو يرحم منك البكاء؟

---

(١) لا يريد المؤلف أن الجاهل لا حجة عليه، فالجاهل يجب عليه أن يسأل أهل العلم، ولكن يريد أن الحجة على العالم أعظم منها على الجاهل، وعصيان العالم جرأة، وعصيان الجاهل بالحرمة لا يوصف بالجرأة.

(٢) في الأصل: ناظر. والسياق يقتضي ما أثبتناه.

(٣) النظرة بتشديد النون وفتحها، وكسر الظاء المعجمة. يعني: المهلة: أي: دار الحياة الدنيا ومدة العمر فيها. فهي إمهال من الله تعالى للعبد ليصلح فيها أمره..

(٤) لأنها تشبه توبة البأس. يعني: التوبة عند الغرغرة، وهي غير مقبولة.

(٥) استعمال البشرى في العذاب تهكم، كما في قوله تعالى: (فبشرهم بعذاب أليم).

ويحك... بادري حلول الأجل بالتوبة... واغتنمي عيش كل ساعة.. فإنك في السير مجدة. وفي كل وقت من لقاء الله تقربين.

ويحك.. تكلفي الحزن واطلبيه، لعلك من الحزن الأكبر تنجين[1].

ويحك.. كدري الفكر فيما سلف منك منَ الذنوب، وعودي البكاء عيناً بالدموع قبل سيلها في نار جهنم.

ويحك.. استعيني بأرحم الراحمين.. واشتكي إلى أكرم الأكرمين.. وأديمي الاستغاثة، ولا تملي طول الشكاية، لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك.. فإن مصيبتك قد عظمت.. وبليتك قد تفاقمت[2].. وناديك قد طال.

قد انقطعت منك الحيل، وانزاحت اليك[3] العلل، فلا مهرب ولا مطلب ولا استغاثة ولا منحا[4] ولا منجا إلا إلى مولاك.

فاضرعي إليه.. واخشعي في تضرعك على قدر عظيم جرمك، وكثرة ذنوبك، لأنه يرحم المتضرع الذليل، ويغيث الطالب المتلهف، ويجيب دعوة المضطر، فقد ـ والله ـ أصبحت إليه مضطرة، وإلى رحمته محتاجة، فألحي بالطلب للفرج.. واشتكي لعظم المصيبة، فإن المطلوب إليه كريم، والمسؤول إليه جواد، والمستغاث به رؤوف.

فأديمي الاستغاثة فإنه يغيثك.. وإن من إغاثته لك أن من عليك بالاستغاثة، فإن أدمت أتم ما من به عليك، وأجاب الدعوة، وعجل الإغاثة، فقد ـ والله ـ ضاقت بك السبل، وانسدت الطرق، وانقطع منك الحيل، ولم تنفع فيك

---

(١) الحزن الأكبر: الحزن يوم القيامة. وقد نجى الله منه أولياءه، فقال: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

(٢) تفاقمت: إشتدت خطورتها.

(٣) في الأصل: وانزاحت منك. خطأ.

(٤) لا منحا. بالحاء المهملة. من التنحية، وهي الإبعاد. أي: لا إبعاد عن غضب الله إلا بالتقرب إليه.

العظات، ولم يكسرك التوبيخ.

فليرك مولاك مقام المضطرين الحيارى الملهوفين لأنه إن أخذك بعظيم جرمك لم يغثك، وإن صفح بجوده أن يؤاخذك أسرع إجابتك.

فادعي دعاء من لا يستأهل أن يجاب ولا يغاث، طامع من الجواد ألا يناقش بالسيئات، ولا يؤاخذ بالخطايا، ويغيث من يدعو، وهو عند نفسه لا يستأهل أن يجاب، ولكن حمله على التضرع معرفته بكرم المسؤول، وجود المطلوب، ورحمة المستغاث.

فاعقلي ما فاتك من طاعة ربك وما أفنيت من عمرك في غير التقرب إليه.

فيا أسفاه على طاعته... ويا حزناه على رضاه.. ويا خجلاه مما أطلع عليه.. ويا طول كمدك إن حرمك جواره في الآخرة.. كما حرمك صدق معاملته في دنياك.. ويا تقلقلك في حر جهنم إن لم يعف عنك.

★ ★ ★

توهم عذاب النار... وعد إلى ربك

ويحك.. اذكري ما يحل بأهل عذابه من اشتعال النار في جميع أجسامهم، ووصولها إلى أحداقهم، ودخولها في أجوافهم.

ويحك.. كيف ترين وجع قلب عبد دخلت النار في عينه، ونفذت إلى جميع بدنه؟

بل كيف بنار تأكل أمعاءه وكبده؟

بل كيف بلسان من نار يدخل في جوف قلبه، ثم يلتهب في جميع أعضاء جسده؟

ويحك.. أتأمنين أن يكون هذا غداً نعتك وصفتك، وهذه حالك؟

ويحك.. إرحمي ضعف جسمك، ولا تخاطري به، ورقي لقلة صبرك، ولا تفتري.

إذا لم ترحمي بدنك من النار فمن ترحمين؟ وإذا لم ترقي له فعلى من ترقين؟

والله لو تبت وأنبت وأطعت، لم آمن عليك أن يردك ولا يقيلك، فاستقيليه عسى ألا يردك، ولا تنالين ذلك إلا به.

فافزعي إليه فزع الهالك، وتضرعي إليه تضرع الغريق، واستغيثي به استغاثة العطب، فإن المستغيث مأذون له في الاستغاثة، والله الداعي موفق للدعاء [1].. فما كان الكريم يمن بالاستغاثة، ويهيج على الطلب، وهو لا يريد ممن فعل به ذلك ألا يجيبه.

ولكن ليكثر المتفضل عليه [2] بالدعاء على مقدار نقمته، وليلح بالطلب على قدر مسكنته، فلتقصير في ذلك ود أكثر المستغيثين [3].

فأما من فتح الله عليه باب الاستغاثة، ومنّ عليه بالتضرع إليه، فعظم منته بذلك، وعلم أنه أعطى ما لم يستأهله، ثم داوم وواظب على الطلب، فلن يخيب الله دعوته، ولن يمسك إجابته.

أبى الجواد بكرمه وجوده أن يرد من أراده فاشتكي إليه.

فداومي، ولا تملي، فمن كان في مثل حالك لا يمل دوام التضرع، لشدة مسكنته ولعظيم مصيبته.



(١) يعني: الداعي عباده إلى دعائه بقوله: (إدعوني أستجب لكم).

(٢) يعني: من تفضل الله عليه بالتوفيق إلى الدعاء.

(٣) رد أكثر المستغيثين لأنهم لا يلحون بالدعاء والطلب، ويدومون عليه، بينما الشريعة تحث على إدمان الدعاء، وتعتبره مخ العبادة. وفسروا قوله تعالى: (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين بأن العبادة: الدعاء).

وازن بين النعيم والعذاب

ويحك... إن لم تخافي العذاب، ولم ترحمي جسدك، أما تشتاقين أن يحل بك من الله الرضى، وينظر إليك بالحظوة؟

ويحك.. أما تحنين إلى طيب جوار الله في جنته، في روح لا يزول، ونعيم لا يبيد، وقرة عين لا تنقطع، فوق الأماني مما تشتهيه الأنفس مع البقاء واليقين بالرضوان؟

وأعظم من ذلك تشتاقين إلى أن تـزوري مـولاك، وتسمعـي كلامـه لـك بالترحيب، ويكشف الحجاب فتنظري إلى من لا يشبهه شيء في جلاله؟

ويحك.. في هذه الدار وجب ذلك كله للعمال، وفي هذه حل الحرمان كله على الجهال فعيشك غنيمة، وبقية عمرك إقالة. فافرحي، واشكري مولاك أن يكون الموت عاجلك، فحال بينك وبين الرجوع، وقطع بك عن النزوع، وفاتك طيب جوار الله الجليل العظيم.

ويحك.. لا تزهدي في القرب من النار، ولا تستهين بطيب الجوار، ولا تعرضي عن الرغبة في رضوان الله.

إني لأقول لك هذا، ولا أدري أي حال عند الله حالك..

بماذا ينظر إليك في ساعتك هذه.. بالمحبة والرضوان.. أم بالغضب والسخط والحرمان.. وأي الدارين دارك.. وأي القرارين قرارك.. وأي العيش عيشك.. فكلا الدارين قد امتلأ بسكانها.. ووصل كل واحدة منها أهلها.

فاطلع بقلب فارغ إلى الجنة وقد ثوى (١) فيها سكانها.. إلى انفساح سعتها، وبرد طيب نسيمها، وإلى طيب ما يفوح من روائحها، وإلى حسن بناء قصورها، وبهجة حليها وحريرها، وتلألؤ نورها على أسرتها وحجالها، وحسن وجوه

---

(١) ثوى فيها سكانها: أقاموا فيها.

أهلها، ونضرة أثر النعيم في وجوههم، وقربهم من مليكهم، ويقينهم برضا الله عز وجل عنهم واختلاف الملائكة رسلاً من الله إليهم، وتردد الولدان كاللؤلؤ في لذاتهم، واضطرار أنهارها على جنادل ياقوتها، وقد تضمنت من أصناف البهجة في عرصاتها.

ثم إشرفي بوجهك على دار الهوان والخزي، فانظري ببصر قلبك إلى شدة ضيقها، وتكاثف ظلمتها، وانطباق أبوابها، مسودة بالعمد [1] عليهم، ووهج النيران فيها.

ثم انظري إلى قبيح صور المعذبين فيها، وإلى شدة نتن دارهم، وتهتك أجسامهم، ونتن مقطعات ما بهم، وإلى النيران ملتهبة من فوق رؤوسهم، وأسافل أقدامهم، وإلى حياض الحميم تفور، معدة بشدة عطشهم، وتجاوب أصواتهم بالويل والثبور، وإلى تضرعهم إلى مالك والخزنة، وندائهم الأقرباء بالاستغاثة، ثم دعاهم إلى ربهم، فأخسأهم، فانقطعت أصواتهم، والتحمت أفواههم، وحبست أنفاسهم، وبقوا بالغم والكرب لا يتنفسون، إلى حلول غضب الله عليهم، وانقطاع رجائهم منه.

وتوهمي ما تضمنته حواشيها من صنوف الهوان، والألوان من العذاب، فإنك إن نظرت في ساعتك هذه إلى كل واحدة منها، وعظيم ما فيها، ثم لم تأمني حرمان جوار الله، والخلود في دارعذابه أشفقت وإن أشفقت حذرت، وإن حذرت أيقنت بكل ما يتوعد به، فتبت وأنبت، ومن كل ما يكره تطهرت.

فانظري وتوهمي إلى عواقب من أطاع واتقى، وعواقب من عصى الله وأساء، ولا ترضي بأن تخاطري فيما إن وقعت فيه لم تقلي [2]، ولا إلى الدنيا تردين.

★ ★ ★

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في وصف جهنم: (إنها عليهم مؤصدة. في عمد ممددة).

(٢) لم تقلي. أصلها: لم تقالي. من الإقالة، وهي التحرر من العذاب. وإنما حذفت ألف الفعل، وهي عينه بسبب «لم» الجازمة.

بادر أمرك في الدنيا

ويحك.. إن الدنيا دار نجاة الآخرة.. بقدر ما تحملين فيها من المكروه لله تعوضين.. وبقدر ما تتركين من ملاذها تجزين.

إن الجامعين بذلوا الأحزان في الدنيا، فورثوها في الآخرة، دوام السرور.

أطالوا البكاء في الدنيا.. فدام في الآخرة فرحهم.

تعبوا ونصبوا.. فورثوا راحة الأبد.

رفضوا لله الشهوات.. فرجوا الجواري القاصرات.. وتنادموا بالخمور.. وصاروا إلى منية وغاية من اللذات.

ويحك.. فلا تدعي معاملة مولاك في دار العمل.. فتخسري الدنيا والآخرة.

ويحك يا نفس.. إبكي على ما مضى من سوالف الذنوب.. فإن المنقطع به يستعين بالبكاء إلى من يستغيث به.. رجاء أن يرحم.

فخذي في البكاء والعويل، والنوح والضجيج، لعله أن يرحم منك العبرة، فيقيلك العثرة، ويعجل لك النقلة.

فإن رحم الله بكاءك، وسمع شكواك، وعلم منك النوح والعويل، إذ عرف عظيم سيئك، رجوت أن يعجل لك الفرج، وينقلك إلى مقام من تولاه ورحم تضرعه وشكواه.

فخذي في النوح والعويل، والشكوى والتعديد، طلباً لجبر المصيبة، وقولي:

«يا رحمن يا رحيم، يا عظيم يا جليل، خلقتني وسويت خلقي، وربيتني فأحسنت تربيتي، حتى بلغت مبلغ من وجب عليك فرضك، وحرم عليه ما نهيته عنه، لم أشكرك نعماءك، ولم أرع حقك، فتعرضت لمساخطك، ووليت

وأعرضت، فما فارقني مع ذلك سترك، وجميل إحسانك».

«ثم عادوت التعرض لمعصيتك، فما زدتني إلا براً ولطفاً. ثم أدمنت تجري رضاك، فأبيت إلا عطفاً وتحنناً، أعارض كل إحسان منك بإساءتي، وتعارض كل إساءة مني بإحسانك».

«ثم مننت علي تنظر إلى طول غفلتي، فأيقظتني من رقدتي، ونبهتني من غفلتي، فقصدت إلى إصرار قلبي فحللته بالتوبة، توفيقاً منك لي».

«فلما ظهرت توبتي للعباد، أبت إلا أن تردني إلى زينة الدنيا، وحسن ثناء الخلق، والركون إلى تعظيمهم، فرجعت كاذباً، أتصنع برجوعي إليك وأتزين بشقوتي منك».

«ثم مننت علي بطلب الآثار، والحفظ للقرآن، فعصيتك بعد العلم والبيان، معاصي في الجوارح وأسباب المعاش، ومعاصي فيما مننت علي به من الطاعات، والقربة إليك، ففي كلا الحالين أتمقت فيما أتقرب به إليك أخالطه بما يباعدني منك، وفيما أعصيك به، أتعرض لسخطك، فعظم مني الإجرام، إذ كان بعد العلم والبرهان، فاغتررت بالستر إذ ظهر حسن الثناء من الناس، فركنت إلى قيام المنزلة، فصرت أعمل في دوامها، وأجزع من نقصانها».

فأنا العاصي في دنياي، وأنا المفلس المسلوب، بل أنا الموقر بالخطايا والذنوب، بل أنا العليل الدائم على التعرض للسقوط، كأني مقيم على أسباب مهلكتي.

فالويل لي إن كان قد سخط عليّ ربي.. والخيبة لي إن كان مقت الله حل بي.. والحسرة لي إن كان الله أوجب عليّ ألا أجاوره في جنته.. والويل والعويل إن كان قد أغلق الباب عني، فلا ترفع لي السماء دعوة.. ولا يصعد إليه مني عمل.

فيا طول حزني وغمي.. ويا طول جهدي وكمدي إن كان الله قد قطع ما

بيني وبينه، فلو محى جميع أهل السموات والأرض لعظيم مصيبتي لكانت أعظم من محى بهم رحمة لي.

ويحي وتأويلي.. لعلي من أعداء الله وأنا لا أدري، ولعله أوجب على نفسه أن لا يقيلني دون أن يجعل النار من الدنيا منقلبي، فما بيني وبين الهوان والذل الطويل والحزن إن لم يعف عني إلى أن تنقطع أيام أجلي، فيحضر وقت منيتي، ويكشف لي عن الغطاء، ويأتيني الخبر اليقين.

فيا جهدي وضعفي.. ويا ذل استجيائي.. ويا شدة حسرتي وعظيم نادمتي، لقد خبت إذ رد دعائي ولم يرحم شكواي.

فكيف يغيث من غضب عليه؟ وكيف يرحم من سخط عليه.؟

فأنا الجريء الذي لا يقلع، وأنا المتمادي الذي لا يستحي.

ويحك يا نفس.. أين تلاوة القرآن؟ وأين معاني الآثار؟ وأين الشكر لمن لا تعرفين منه إلا الإحسان؟ رضيت بأحوال الجاهلين ومنازل الغافلين وأعمال الفاسقين.

ويحك يا نفس.. أليس قد انقطع عنك كل لذة، وزالت عنك كل رفاهية؟ وانقضت الساعات والأيام، وما كان فيها من التخليط والذنوب، وبقيت عليك الأوزار، هذا ما قد قضي وذهب.. وبقي السؤال!!

فهكذا تستقبلي أيامك... ما يكون منها وما يبقى عليك من التبعات. فتحولي عما ينقضي ويبقى سوء عاقبته، والله فما ينفعك معه رزق ولا أجل، ولا يفارقك حسن عاقبتك في دنياك واخرتك.

ويحك.. فنادي ربك بصوت محزون من قلب محتدم مغموم.. واسبلي الدموع واستغيثي استغاثة المكروب.

فقولي يا رب هذا مقام المتضرع المسكين، البائس الفقير، الهالك الغريق، فعجل إغاثتي وفرجي، وأرني آثار رحمتك، وأذقني برد عفوك ومغفرتك

وأرزقني قوة عظمتك ولذة إقبالك عليَّ، وترويح زوال عقوبتك، وسرور القلب منك وأنس الحب لك.

فبدل أحوالي، واقلب همتي، وحول لذتي حتى يصير ذلك في صدق معاملتك، وحلاوة مناجاتك، وراحة الثقة بك.

★ ★ ★

إستحي من الله وحده

يا نفس فادعيه وأنت منه مستحية، فقد طال قلة حيائك منه.

ويحك.. تستحين من الخلق من المؤمنين والكافرين أن يروا فيك ما يعيبونك به، ولا تستحي ممن يطلع على كثرة ما عندك من ذنوب وسوء ضميرك.

ويحك.. إذا حملت وعاء من أوعية الشر، فإنك ترتعدين خوفاً أن يبدو للناس شيء مما فيه من الشر.. فمتى تصلحي ما بينك وبين الله؟ هيهات.. إذكري الموت كالعبد السوء الذي لا يستحي من مولاه، ولا يرجع عن مساوئه، ولا يعرف إحسانه إليه إلا عند الحساب والعقاب، واذكري الموت وما بعد الموت.

ما ظنك بمن يكره أن يطلع الناس منه على ما يكره الله، ولا تستحي أن يطلع الله منه على ما يكره.

سوءة لك.. وعجباً لك!! حيث تتركي وتضيعي الفرص، وتركبي من الأشياء ما كره الله، ثم تتقربي إلى الله بما لم يفرضه عليك، وتتعاطي النوافل وتأمري وتنهي، وتدعي الناس بزعمك إلى الله، وتأبقي منه، وتأمري ولا تعملي، وتنهي ولا تنتهي.

سوءة لك.. فمن ذلك ينبغي أن تستحي.

فادعي على تفقد لطف مولاك لعلك أن تستحين منه، فإن لطفه باطن

وظاهر، مع إساءة منك باطنة وظاهرة، فهو يديم إحسانه بأضعاف الإحسان مع دوامك على الإساءة بصنوف من الإساءة.

ويحك.. أوكافرة أنت؟ أم شاكة في الله أنت؟

ويلك.. والويل لك، ما أسوأ حالك!! مهلكة وأنت تعلمين.. مع ذلك في السرور تتقلبين وبالله لا تبالين.. من خلقه تستحين ومنه لا تستحين!!

ويلك.. على الغضب منه تستقدرين!! أما تستدلين؟ فأنت لا تكترثين ولا تحزنين، كل ذلك غرة بالله وجرأة عليه؟!!

فقد تحيرت يا نفس في أمرك!! وتبدلت في التأني لكي أعاقبك ولا تغيثيني، وأعظك ولا تتعظين ولا تنكسرين، وأعيرك فلا تستحي وأشكوك إلى من علمك فلا تداني أهلاً للجواب، وأستغيث منك فلا تغيثيني!!

فما أدري!! كيف حيلتي؟ ولمن أستغيث وبمن أستعين؟ على ربي لعله له عنده جاهاً فيطلب لي فيشفعه ويفرج عني، فما أجد حيلة إن لم يجيب دعوتي!!

مولاي.. ولا مطلب للفرج إلا بتكرار الإغاثة.. ودوام الشكوى، لعله يرحم ضعفي، ويكشف ضري، ويزيل سقمي، وينعش صرعتي، وينقذني من غرقي.

فأنا والله الكذاب المستور عند العباد، وأنا الهالك الفرج، وأنا الغريق المسرور.

★ ★ ★

لا تقنط من رحمة الله

يَا رَبُّ.. فمنْ سَمِعَ بِمِثْلِ ضَعْفِي، وَمَنْ رأى مِثْلَ شَرِّ مَنْزِلَتِي. فإليْكَ أُشْكُو، وَبِكَ أَسْتَغِيثُ.. مَعَ اليَقِينِ بأني لَسْتُ أَهْلَ لِأَنْ تُغِيثَنِي ولا تُفَرِّجَ عني، لكن أَنْتَ أَهْلٌ أَنْ تُرَوِّحَ عني، وترحم مَسْكَنَتِي، فإن معرفتي أنه لا يملك أحد إغاثتي غيرك

هي التي اضطرتني إلى الإياس من كل فرج إلا من عندك.

الأمل فيك أن تجيب دعوتي، وتنعشني من مصرعي. فلا تخيب أملي.. وعجل تحقيق طمعي، فما جرائي على الطلب إلا ما مننت علي به من معرفة وجودك العظيم، ورحمتك الواسعة، وتحننك على الضعفاء من قبلي، ونقلت من نقلت من عظيم جرمه وكثرة خطاياه ومساوىء فعله.

تذكر عذاب القبر

فأغثني يا مغيث.. وارحمني يا رحيم.. فأنا اليوم في رفاهية في دنياي مع سوء حالي في ديني.

فقد قرب زوال الدنيا عني، ووقوعي في الأهوال المتصلة، والشدائد المتداركة، والغموم المتوافرة من نزع الموت وكربه، مع عظيم خطر ما يأتيني منك من الصفح والغفران، أو السخط لما كان مني من العصيان.

ثم حلول القبر وضغطة الأرض، والسؤال من الملكين، والمكث الطويل في البرزخ، ثم الحشر والكشف عن الغطاء.

فإن لقيتك على حالتي هذه فما أطول همي في القبر، وما أشد يوم النشور عليَّ، ثم يغلب على قلبي إن لم تغثني في الدنيا، فتنقلني مما يسخطك إلى ما يرضيك عني.

إن إغاثتك في تلك الأهوال لا تنالني، فالهلاك الذي ـ والله ـ لا ينقطع في لقائك، والهوان في يوم النشور.

فيا غربتي في القيامة.. ويا طول الحسرة والندامة، فيا طول بكائي يوم القيامة، وسجن في النار عن طيب جوارك والنظر إلى جلالك.

إني لأرجو ـ وإن كنت أخرت إغاثتي ـ أن لا تدعني لسوء حالي حتى يعجل رجي ونقلتي. فأسألك بوجهك الكريم، وقدرتك على كل شيء، وإرادتك

النافذة في كل ما تريد، وأولتيك التي لا بداية لها، وبقائك الذي لا انقطاع له، أن تكشف خزي، ولا تؤاخذني بعظيم جرمي، وكثرة عصياني، وقلة حيائي.

داوم على الإغاثة والدعاء لله

فوعزتك.. لا تزيدني ردك لي، وتركك إغاثتي، إلا دواماً على التضرع، وكثرة الإلحاح لأنه لا يحل لي أن ينقطع منك رجائي.

فلم تؤخر إجابتي. فلا بخل يعتريك، ولا لزوال قدرة منك على فرجي، ولا أنك تعلم سوء حالي، ولا أن رحمتك تضيق عني، ولا لأني لست محتاجاً مضطراً إلى ما أطلب إليك.

وأتضرع وأستغيث.. فإذا كانت لا علة لحبس إجابتي إلا من قبلي، ولا يحل أن ينقطع منك رجائي، لأنك لو أردت أن ينقطع رجائي لم يبق لي فيك الأمل، وقد حسن فيك ظني وأمكنني طمع أن تريد إجابتي. وإنك إنما حبست عني الإغاثة ليطول مني الطلب، ويدوم مني التضرع، كما دمت على معاصيك، وواظبت على تضييع أمرك، فتحبس حتى أدمن على التضرع، كما أدمنت على الإعراض عنك عقوبة.

ثم تفرج عني بعد الإلحاح، وتغيثني بعد الدوام على الشكوى والاستكانة. فاسرع غياثي، ولا تكافئني بطول تأديبي، فإن كافئتني وأنت تريد أن تغيثني بعد طول الدعاء. فلا تنزع مني توفيقك لإدامة الاستغاثة، وتواتر الإستكانة. فإنني لا أقدر على الإلحاح بالفزع إليك إلا بتوفيقك، فلست أدعي الدعاء إن حبست على النقلة.

ثم تستجيب دعوتي وترحم ضرعتي وهلعي، فها أناذا متضرع مسكين، وعلمك علي أضرع وأخضع.

فإن تعجل فرجي فقد تم سروري، وأن تؤخر راحتي من بلاي ففي الطلب

والدعاء تنفيس، وإذا لم تنيلني الأمل فيك ولم تحرمني من الشكوى[1] إليك وإلقاء نفسي بين يديك مع أملي.

تذكر أن الله يغفر الذنوب جميعاً

إن غمي إن عقلت لعظيم، وإن خزي لشديد، وإن كربي لغالب، إذ كنت أعيش بالطلب والفرج لي غير معجل.

وقد رأيت وسمعت، وأيقنت وأدركت من قد مدحت عنه وأغثته، وعجلت فرجه، فطهرته من الأدناس، وألزمته الإشفاق والحنين لك، والحنين إليك.

فلو تقطعت كبدي حسرات لكنت بذلك حقيقياً، لأني مضطر مجهود، وأطلب فلا أعطي، وأرى ما تتقلّب فيه أعمالك من كثرة الأيادي، ودوام الإحسان، ولا تطاوعني نفسي أن أشاركهم في مقاماتهم.

وإنما أسأل الذي من عليهم بذلك أن تشركني في التوفيق معهم.. فطوبى لعبد أغثته، فطهرت من دنس الذنوب قلبه، وألزمته التعظيم لك، وحسن الدعاية لك، ومننت عليه بصدق الحب لك وشدة الحنين إليك، وعظيم الشوق إلى لقائك، مع خوف شديد وحزن طويل، والوجل والشفق مما مضى من تفريطه، وما سلف من ذنوبه، فهو يتحنن إليك، ويأنس بقربك، وينعم بمناجاتك، وهو يخاف أن يحال بينك وبينه.

فقد طاب في باقي عمره عيشه، فوهته من خوفه ورغبته، وحبه وحنينه يتصاعدان لهم، يسموان بوهمه ويستخرجان منه.

بذلت المجهود من التقرب إليك، فهذا من أغثته بلا نقص دخل عليك من ملكك، وأنا قد تركتني فقيراً محتاجاً، لا تنقصك إغاثتي. فعجل فرحي لأن تأخير إجابتي يحزنني، ولا أدري متى يكون فرجي؟!!

(١) في الأصل: الشكوا. خطأ.

أنا مغموم لما مضى من إعراض عنك، ومما يكسر فؤادي ويقرح قلبي نظري إلى عمالك يتقلبون في كرامتك، ويترفعون في مواهبك، ويتنعمون بشدة الحنين إليك. عن الدنيا معرضين، ولمعالي القرب منك في طلبه جادين، غني في نفوسهم عمن سواك، وعز بك من العبيد.

فأنا عبدك كما هم عبيدك، وأنا فقير مضطر كما كانوا مضطرين في سوء الحال، فصفحت لهم عن خطاياهم ونقلتهم عن دناءة أخلاقهم وقبيح أعمالهم.

فالحق عبدك الفقير المحتاج بعمالك الأقوياء، وبالراجعين إليك المنيبين، ولا تؤخر ذلك طرفة عين، وإنما أمرك إذا أردت شيئاً أن تقول له كن فيكون.

فقل للخوف والوجل والرهب والشفق أن تلزم قلبي، وللحب لك أن يعلو على جميع همي، ولجوارحي بمن تدأب مسارعة، ولهواي وشهواتي أن تموت خاشعة حتى تذيقني الفرح بنعيم الطاعات، واصلاً بنعيم الأبد في جوارك والنظر إلى جمالك.

يا إلهي. ويا ربي.. ويا موضع شكواي ومفزعي في لهفي.. إنما أعيش برجاء جودك، فلولا ذلك لخشيت أن تنشق مرارتي، وتتفتت كبدي كلما ذكرت جرأتي عليك، وإقدامي على ما نهيتني عنه، ولم يكسرني ما عرفتني من عظيم جلالك.

كاد الإياس أن يخامر عقلي، وضاقت علي الأرض برحبها، إذا كنت لا آمن أن أكون انقلبت في عينك بالمقت والسخط علي.

هذا خوفي.. مع قسوة قلبي يكاد عقلي معه يطيش. فكيف أن أتتني رسلك بالبشرى بذلك عند الموت؟؟ لقد تحقق إذاً خوفي، وانقطع رجائي، وبطل أملي، وحسر قلبي، وعظمت حسرتي وندمي، ولا مغيث لي ولا شفيع ولا أرد إلى الدنيا التي فيها خالفت أمرك، فأطيعك وأتحرى رضوانك.

هيهات.. لا مرجع ولا مستعتب، فانظر إليَّ برحمة لا أستأهلها، أو بادرني

قبل حلول الموت بتوبة ترضاها، فإني أرجوها، ولا آمن أن تمنّ بها عليَّ، ولكن أطمع فيك إذا وهبت لي معرفتك، ولم تبلغ بي عقوبتك أن تسلبني الإيمان بك، وأبقيت لي الطمع فيك، فبالجود الذي أمسكت عن عقوبتي أن ينقطع منك أملي، ألا حققت أملي، وأسرعت بفرجي؟!!

★ ★ ★

تذكر يوم الحساب

ويحك يا نفس.. كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب، وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت.. وهيهات، أتحسبين أنك تتركين سدى؟

ألم تكوني نطفة من مني يمنى، ثم علقة، فخلق فسوى، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ فإن كان هذا من إظهارك فما أكفرك وأجهلك.

أما تتفكرين أنه مما خلقك؟ من نطفة خلقك فقدرك، ثم السبيل يسرك، ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه في قوله:

(ثم إذا شاء أنشره) [1]

فإن لم تكوني مكذبة، فما لك لا تأخذين حذرك؟ ولو أن يهودياً أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك، لصبرت عنه وتركته، وجاهدت نفسك فيه، أفكان قول الأنبياء عندك أقل تأثيراً من قول يهودي؟

أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك، والقبر بيتك، والتراب فراشك، والدود أنيسك والفزع الأكبر بين يديك؟

فاحذري يا نفس يوماً إلى الله منه على نفسه أن لا يترك عبداً في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله، دقيقه وجليله، سره وعلانيته.

---

(١) سورة عبس، آية: ٨٠.

فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله، وبأي لسان تجيبين، وأعدي للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، واعملي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال، وفي دار زوال لدار مقامة، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود، إعملي قبل أن تعملي، إخرجي من الدنيا إختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا، فرب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر.

فويل لمن له الويل ثم لا يشعر، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح، ويأكل ويشرب، قد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار.

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً، أو سعيك لها إضطراراً. وفضك لها إختياراً، وطلبك للآخرة ابتداراً. ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، وينهي الناس ولا ينتهي.

ويحك عما بداخلك.. غدا بين يدي مولاك فلا تغربي عنه صفحاً، ولا تشاغلي عن ذكره، ولا تدعي العدة بتهيئة الجواب له بصدق ما كنت عليه في الدنيا، فلأن يحيني بالصدق أرفه لقلبك من أن تحيني بالكذب.

والله ما قامت العقول من الصادقين عند جوابه حتى ذهلت، ثم ردها إليهم لإقامة الحجة على المسخوط عليهم أن يدخلهم في عذابه وهم له عاذرون، ولأنفسهم لائمون، إذ قدرهم بما ضيعوا من حقه، واجترءوا عليه في ركوب نهيه، وليستخرج من الصادقين صدق الجواب فيقبله منهم، ويؤمنهم ما كانوا به خائفين ويسرهم بقبوله منهم عوضاً مما كانوا في الدنيا من رده مشفقين، ولكن لا بد إذا أرادوا أن يقرأوا كتبهم، ويبتدىء الله في مساءلتهم أن تزهقهم الهيبة العظمى، والمخافة الكبرى.

فيا نفس ويحك.. إعملي على أنه قد رحم شكواك فيقلل عن بلائك... أين توارين ما دمت في الدنيا من نظره، مع ما يعلم من قبائحك التي سلفت منك؟

وأين تزوغين وأين تحيدين غداً عن العرض عليه، وتراه جميع مساوئك، واستماع كلامك بذكر فضائحك؟

ويحك.. فلا تعيشي في الدنيا إلا بحمده، ولا تتقلبي في أحوالك إلا حسرة، ولا تصبحي ولا تمشي إلا خجلة من توقعك للمتقلب إلى الوقوف بين يديه، والسؤال منه إليك مع ـ والله ـ أحوالك قبل السؤال منه في يوم النشور.

فأين قلبك حينئذ يا جاهل؟ وأين فؤادك يا غافل؟ لو يقع المني أن لا تكوني من المخلوقين أو إذا كنت خلقت أن لا تكوني من المبعوثين لكنت إلى ذلك تروحين وإليه تفزعين.

ولكن هيهات قد كتب عليك ما عصيت، وأحصى عليك ما عصيت، وأحصى عليك عصيانك فلا ينسى، وكتب فلا يمحي، وأنت تعين أن الملك للأعلى عارف بما كان منك من البلايا، ثم المصير إليه لا شك فيه، ثم الأهوال ما لا تقوم له السموات ولا الجبال الصم الشوامخ في الورى، والمعرض على ذي العز والكبرياء، ثم لعل الانصراف من بين يدي الله عز وجل مع الأشقياء إلى العذاب جار في الوصف، أن يحد شدته، وأن يعلم ألمه، وأن يعلم شدة حرقته للقلوب مع الغم الذي لا يحده، والحزن الذي لا يستطاع أن يوصف.

ثم السحرة اجتمعوا ليغلبوا كلمك بسحرهم، إن غلبوه أن يجعلهم أجرأ من ملكه، وزلفة لديه فما منعك ذلك من مقامهم ذلك في عقب كفرهم، وحلفهم بعزة فرعون إلاهاً اتخذوه من دونك إن عطفت عليهم برحمتك، وتفضلت عليهم بكرمك وتحننت عليهم بجودك. فبصرتهم جهلهم وعرفتهم ظلمهم أنفسهم، وألزمتهم الإقرار بربوبيتك والإخلاص لعظمتك، وعرفتهم صغر فرعون وضعفه، وصغرت الدنيا في قلوبهم، وهونت عليهم قطع أيديهم وأرجلهم في مراضاتك، والصبر على الإيمان بك، وهونت لهم رحى جنتك، وألزمت قلوبهم خوف عذابك، حتى نطقوا بك في مقامهم، كأنهم قد مرت بهم الدهور في طاعتك ودراسة العلم من كتبك.

ثم عرفتهم أن ما مننت عليهم من الإيمان بك لا يتم إلا بك، وأن ما تهددهم فرعون به من قبلهم، وصلبهم لا يستطيعون الصبر عليه إلا بمنك وتوفيقك، وأيقظتهم إن ناجوك بذلك عما عرفتهم من حاجتهم إلى عفوك وتأييدك. فقالوا: (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين)[1].

فيا من لا إله إلا أنت، ويا قديم لا أحد سواه، ويا خالق لا خالق معه، ويا منفرد الصفات الحسنى لا مساوىء له، ويا غياث المؤمنين قبلي، ويا صاحب السحرة وقد غدوا كفاراً فجرة، فنالتهم رحمتك، وتحنت عليهم برأفتك.

★ ★ ★

اطلب الإغاثة بالتوبة من الذنوب

أغثني ولا تنظر إلى سوء ما عندي، ولا عظيم جرمي، كما لا يمنعك عظيم جرم السحرة، ولا خطايا المذنبين قبلهم وبعدهم، إذ مننت عليهم بالتوبة، ومنحتهم العصمة.

فالفوت الفوت.. والفرج الفرج.. فقد طمعتني بأن تُعَجِّلَ فَرَجِي، وتفك من الذنوب أسري.

فعجل الفرج إلي ولو ساعة من النهار، ثم تميتني قبل أن أبدل وأغير، وأن تفرج عني وتنظر إليّ في المهلة، وتهب لي طيب المعاملة لك وذلك قرة عيني في الدنيا والآخرة. فاقرر عيني بطاعتك بدلاً مما قررت وسررت بإيثار الدنيا وأمانيها على محبتك.

فيا أسف على ما مضى من عمري، وما فاتني من التلذذ بمناجاتك.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٢٦.

فأنت المحمود على حسن...[1]، فلقد طالبت فأحسنت المطالبة، وأنظرت فأحسنت النظرة وأمهلت. فلك الحمد كما أنت أهله وكما ينبغي لكرم وجهك وعز جلالك، وعظيم ربوبيتك.

ألست الذي أهتك ستري وتسترني، وأتبغض إليك وإلى خلقك وتحبني، وأتباعد عنك وتقربني، وأتحرى مساخطك وأنت تتحرى ما يرضيني.

أستعين بنعمتك على معاصيك، وبإحسانك على تضييع أمرك، آتي ما تكره شأنه فتسترني، أديم تضيع شكرك وتديم برك ولطفك، وأدعوك فتسمع إجابتي وتدعوني فأبطىء عن إجابتك، فبئس العبد أنا لك ونعم المولى أنت لي.

فلذلك انكسر فؤادي، ونكست المذلة رأسي، واستحيت لعظيم جرمي، ولولا أني أخاف إن لم أسألك أن تغضب على ما سألتك، علمتني أسماءك، وأمرتني بدعائك فقد عظم فيك طمعي، وأنجيتني، ثم عرفتني أنه لا إله سواك يعينني، ولا رب غيرك يفرج عني، فأنا مستسلم لعذابك لعظيم جرمي، طائع غير آيس من رحمتك، لما عرفته من جودك وكرمك وسعة رحمتك.

فتفضل ولا تكامن، وأعف ولا تجاز، وفرج ولا تؤاخذ، يا أرحم الراحمين، ويا أكرم من كل كريم، بل لا كريم ولا جواد ولا راحم بالحقيقة غيرك، لم تزل ولا تزال كذلك.

القلوب كلها تصوف عن مشيئتك، والعواصي كلها بيدك في قبضتك، ورحمتك وسعت كل خلقك، وعفوك غمر كل بريتك، وعرفتني نفسك وعلمت ضعفي في شدة جرأتي عليك.

وها أنذا بين يديك غريق فانقذني، واثق ببرك فذدني، وحيران متحير فسددني، ومخذول بعقوبتك لطول تماديه.

---

(١) مكان النقط: مطموس في الأصل.

فاغمرني بعفوك وارحمني برحمتك ورأفتك وتحننك، فقد مساني النكال وغيرت أحوالي العقوبة حتى صرت إلى شر منزلة في ديني، أسألك فلا تعطيني، وأستغيث بك فلا تغيثني، وأتضرع إليك فلا ترحمني، وأستجيرك فتصرف وجهك عني. ولولا ذلك لذقت برد عفوك، وأثر حسن إجابتك، وذلك كله قليل مما استوجبه من العقوبة لجرأتي عليك بعد العلم بك والمعرفة بشدة عذابك.

يا رب.. فلو كنت تدعني بذنوبي التي كانت، وتمنعني معصيتك من الإزدياد كل يوم في ذنوبي كان أقل لغمي ومعي ذنوبي.

وأخاطب نفسي بالدر ولم تمنعني من الإزدياد على بلائي إلا البقية التي بقيت لي عندك.

لم تخرجني من ولايتك، ولكن قد أفرح قلبي وأنهل فؤادي من ذكر رحمتك.

فيا طول ويلاه ويا تلذذ النار، أين الهرب وكيف الحيلة؟ وعزتك لا أقطع أملي يدك، فأنت أرحم الراحمين إلا أن يتحولَ خذلاً بسخطي وأنا منتظر لعطفك ورأفتك وتحننك وكرمك.

« تمت معاتبة النفس بحمد الله، غفر الله لمن قرأه، ودعى لكاتبه بالرحمة والمعرفة ».

فهرس
البعث والنشور

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

فهرس
معاتبة النفس